حروف الضباب

حروف الضباب

ɃŞäŞÂöä ǦȺŢ Ž ɃŞäȀöä ǿƶę

رواية

تأليف

الخير شوار

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-538-5

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

«يـا صديقـي.. لقـد علمـت حينما كنـت أجول في التلال والبراري الواسعة مـع حيوان البر، أن الغابة كانت تمتـد عشـرة آلاف ساعة في كل جهة».

أنكيدو- «ملحمة كالكامش».

وكلُّ شيء ممكن..

كانت الصورة واضحة على شاشة التلفزيون.. شابٌ بملامح حزينة.. الصورةُ الجامدة وجدوها في بعض أوراق المختفي الخاصة، تمثله عندما كان يستعد للتسجيل في قائمة المقبلين على الدراسة في المرحلة الثانوية..

فوق الصورة كتبوا بخط الكتروني عبارة «نداءات»، وتحت العبارة جاء ما يلي:

الاسم: الزواوي..

العمر: 18 سنة تقريبا.

ومع خلفية الصورة انبعث صوت امرأة محجبة بطريقة تقليدية تدعو ولدها الضائع إلى العودة للبيت إن كان في الاستماع، وسرعان ما فقدت صاحبة الصوت توازنها ولم تتمالك نفسها لتنفجر بكاء.

البرنامج التلفزيوني الذي يحمل اسم «وكل شيء ممكن» كان مميزا في حلقته تلك في قرية «عين المعقال»، وأحد أفرادها يمر لأول مرة من خلاله على شاشة التلفزيون.

كانت المرأة يائسة، وكانت تلك الوسيلة آخر ما تبقى لها بعد أن بلغ أمر اختفاء الزواوي المستشفيات وفرق الدرك الوطني وأقسام الشرطة، وبعد أن نشرت صورته في كبريات الجرائد التي تصدر في البلاد.

ووراء شاشات التلفزيون أخذت ألسنة الناس تلوك الحديث عن

صاحب الصورة الذي غاب عن أعينهم بطريقة طرحت أسئلة كثيرة.

في هذا الوقت حسـد أحدهم الزواوي الذي لا يعرف له مصير، لأنه أصبح مشـهورا وصوره نقلت عبر الأقمـار الاصطناعية عبر القناة الفضائية.

وراح النـاس يتكهنون بمصير هذا الشـاب غريـب الأطوار الذي لم يكن يفهمه أحد.

تكلم البعض عن إشاعة سرقته مجوهرات أمه وهروبه بها، وقال آخرون إنه تزوج من جنية، أجبرته على دخول عالمها ولن يتمكن أهله من استعادته إلا بجمع حفظة القرآن في وليمة يُرتّلون بعدها كتاب الله جماعة مع قراءة بُردة وهمزة الإمام البوصيري وبعض الأدعية السـرية التي يعرفها الراسخون في العلم.

أم الـزواوي أنّبها ضميرها.. أحسّـت بعد فـوات الأوان أن ابنها كان يعاني مشكلة ولم يسـمح له خجله المفرط بمصارحتها.. تسبّبت قسـوتها عليه في تأزم وضعه، وجعله ذلك يغـادر البيت -ربما- بهذه الطريقـة، وتدعو الله في صـلاة الفجر أن يرجع لها فلـذة كبدها الذي يحتل مكانة متميزة في قلبها دون سائر إخوته.

تدخل غرفته.. تذكرهـا كل ورقة من كتبه المرميـة به.. تصرخ.. تسقط مغشيا عليها.. تلتف حولها بناتها.. تحاول كل منهن طمأنتها.

- لا تخافي عليه.. إنه مثال الطاعة.

- من المؤكد أن طارئا حدث..

- الغائب في حكم الله.

تتسـارع الكلمات في رأسـها.. تتحول إلـى كلمات أغنيـة رديئة يبثها التلفزيون في كل وقت.

تتذكر النسوة برنامج «..وكل شيء ممكن» التلفزيوني.. تتكلم إحداهن عن اللقيطة التي تبحث عن والديها دون جدوى.. تتذكّر أخرى صرخات الطفل الذي نشأ في ملجأ الأيتام وتوسله لأمه لأن تعود إليه.. وتطمئن أخرى أم الزواوي وتذّكرها بالأب الذي وجد ابنه بعد أكثر من عشرين سنة من الغربة والفراق.

يكثر الحديث في الموضوع ويتميّع إلى المسلسلات المكسيكية المدبلجة التي لا تنتهي حلقاتها والفنتازيات التاريخية السورية التي يتكرر أبطالها إلى درجة اختلاطها ببعضها.

تتحدث العجائز عن حياة الرفاهية التي يعيشها الممثلون من خلال الحلقات المبثوثة، وتخصص الفتيات الحديث كله عن وسامة الأبطال والعلاقات الغرامية وشبه هؤلاء الأبطال بأشخاص في حياتهن.

يفترق الجميع، تعود العجائز والنسوة والفتيات إلى بيوتهن.. يسقط الظلام على قرية «عين المعقال» مثلما فعل آلاف المرات.. وتمارس القرية طقوسها الليلية في صمت رهيب..

ليلة صقيعية.. العائلة تطوق لا شعوريا المدفأة الكهربائية.. أم الزواوي تتحدث عن شؤون البيت.. تنظر فجأة إلى سروال قديم.. تتذكر ولدها الغائب.. تجهش بالبكاء.. يتدخل الجميع لمواساتها، ثم يتشعب الحوار إلى قضايا متنوعة.

بعد وجبة العشاء تساءل النوري الابن الأصغر بإلحاح عن سر تسمية قريتهم بـ»عين المعقال».

كان هذا السؤال استفزازا للراوي الذي قرّر أن يتكلم ويستعيد الحكاية من بدايتها..

عين المعقال

في سـابق الزمان.. في مكان لا نعرفه، عاش فتى غريب الأطوار اسمه «الزواوي»، عرف فيما بعد بـ»الزواوي المعقال».

يُقال إنه أمهر شبان دشرته في فتل المعاليق.. كان وأقرانه يقومون بمعارك طاحنة ضد فتيان المداشـر الأخرى، وكم سـالت الدماء جراء ذلـك.. كانت حياته عادية للغاية إلى أن وقع في حب جارة له اسـمها «الياقـوت».. وكان الحـب عفيفـا بيـن الطرفيـن، لكن شـقيقها الأكبر عندما اكتشف الأمر أقسم أن يقف في وجهه.

يقـال إن الزواوي كان يكتب شـعرا في حبيبتـه الياقوت، فأصبح أخوها مسـخرة أقرانه، وأصر علـى موقفه المتعنت ذاك بعد أن أشـبع شقيقته ضربا وتهديدا بالقتل.

تقـدم الـزواوي لخطبة الياقـوت فقوبـل بالرفض.. أوهمـوه أنها رضعـت أمه.. لم يتمكن من سـؤال أمه عن صحة ذلـك فالأموات لا يسألون.. أقسم بأن يأخذها بأية وسيلة وأقسموا بألا تكون له.

لم يصدق خبر تزويجهـا من غيره.. تغيّر حاله وفقد صوابه.. في يوم زفافها أراد الانتحار فأشبعوه ضربا حتى غاب عن رشده..

تغيّـر بعدها من حال إلى حـال.. أصبح قليل الـكلام، يميل إلى اعتزال الناس. وبينما هو على تلك الحال قال له أحدهم في لحظة:

-كنت أمهر الناس في صنع المعاليق فبقيت مجرد «معقال»!.

مـن يومهـا أصبـح يعـرف بـ»الـزواوي المعقـال»، وبـات يحس

بالغربة داخل دشرته، فراح يفكر في مغادرتها إلى الأبد.

في ليلة ظلماء حمل القليل من ملابسه وسلك طريق المجهول دون أن يخبر أحدا أو يشعر به أحد.

هام على وجهه في أرض الله.. علّمه الجوع والعطش معنى الحياة.. أكل أوراق الأشجار واهتدى إلى نبع الماء في أسفل الجبل.. رابط عند ذاك النبع زمنا.. كانت تؤنسه خيّام الرحل وقت الصيف، وفي الشتاء يعاشر البرد في كوخه الذي بناه بمعونة أهل الخيام الراحلين.

احترف قطع الطريق.. يأخذ من الرعاة العابرين الطعام عنوة كل مرة.. يأكله مع أول العابرين ويحدثهم عن الجشع الذي قضى على قلوب الناس في ذلك الزمن.

يدفع له العابرون كل مرة ضريبة المرور عبر منطقته، وكم كانت فرحته كبيرة عندما استقر بعض الهلاليين بخيامهم قرب كوخه ونبعه.

أصبح له جيران دائمون لأول مرة.. يأخذون من عنده الماء مقابل إطعامه وغسل ثيابه.. تعرفوا إليه بعمق وحكى لهم قصته من البداية، ومن أيامها أصبح النبع يسمى «عين المعقال».

قرّر زعيم القبيلة الهلالية تلك أن يزوجه إحدى بنات القبيلة ليندمج فيها.. رفض العرض بشدة وبقى وفيا لذكرى حبيبته الياقوت التي لا يعرف شيئا عن مصيرها. كان يقرأ على بعض أفراد القبيلة الكثير من أشعاره «الياقوتية» وكانوا يستمتعون بذلك ويلحون على إعادة بعض المقاطع التي تعجبهم.

كانت بجانب المنبع تربة غضارية، استعان بها الجيران الهلاليون في صنع الأواني والطواجين، وكانت النسوة يأكلن من تلك الطينة

عند الوحم.. قيـل إن تربة الزواوي مباركة، من تـأكل منها يرزقها الله الذرية الصالحة.

كانـت الأيـام تتقـدم بـ»الـزواوي المعقـال»، وبمرورها اسـتولى السكان الجدد على أرضه وأضحى فردا منهم.

الظروف جعلت للزواوي مكانة خاصة في هذه القبيلة.. من نبعه تشرب ومن طينة غضاره يرزقها الله الذرية الصالحة.

وبدأت الأسـطورة تنتشـر بيـن الناس.. الـزواوي مبارك، أرسـله الله لفائدة عباده الصالحين ومن يتسـبب في إيذائـه تلاحقه المصائب واللعنات إلى قبره.

ومـع تقدمه في السـن زادت قداسـته عند سـكان القبيلة، اسـتقر الجميع وسكنوا أرضه، فأصبح أحد أفراد القبيلة.

لـم يعد أحـد يتصور المـكان دون الـزواوي، لكنه غـادر مكرها ذات ليلـة.. وجدوه في الصباح ميتا.. بكته النسـاء بمـرارة وأقيمت له جنازة تليق بمقام الأعيان.

بعد دفنه بقي النبع يذكّرهم به وقد سـمّوه قبلها «عين المعقال»، ومع الزمن تحولت المنطقة كلها إلى «عين المعقال».

مكان الغضار أصبح مقدسـا وقبر الزواوي صارت النسـوة يزرنه في المواسـم والأعيـاد.. يطلبـن منه ما يعجـزن عن التصريـح به أمام الناس ويشعلن الشموع والبخور، ويطلين شاهدي قبره بالحناء.

بعـد مدة فكّر رجـال القبيلة في بناء قبة فوق قبـره.. أصبح مزارا وانتشـرت القبور بجوار قبته وتحوّل المحيط إلى اسـم «مقبرة سـيدي الزواوي».

صار الحديـث عن الزواوي مغلفا بالقداسـة.. نسـبت إليه أقوال

كثيرة في شكل جمل مختصرة وبليغة.. قيل إنه تنبأ بالكثير مما يحمله المستقبل.

لم تنسه العجائز مرة واحدة بالبخور عند زيارة المقبرة، ونسبن إليه المقولة التي حفظها الجميع:

«يالي حابين تربحوا زين الدعاوي

هاتوا البخور والجاوي

وارواحوا للزواوي

اللي يجرح ويداوي».

ونامت القبيلة في السكون وقتا طويلا.. لم تشهد حركة إلا بمجيء أناس غرباء عنهم.

ذات صباح نهض الجميع على حركة غير طبيعية.. وجدوا بجوارهم بعض الخيام منصوبة وحولها أناس غرباء.

استنكر الشيوخ الأمر وطلبوا من كبيرهم التفاوض مع الغرباء سلميا وإلا حدث ما لا يفرح هؤلاء.. استعان الشيخ بعصاه وبعض المرافقين من أهل «السياسة».

استقبلهم الغرباء بإناء أكل.. لم يقولوا شيئا عند الطعام، وعندما عادوا من حيث أتوا قال أحدهم:

- ولماذا لم تكلمهم في الأمر؟

- هؤلاء أهل خير.. لقد أكلنا ملحهم ومن العار أن نطردهم.

- وما العمل أيها الشيخ؟

- أرض الله واسعة.. نقتسمها معهم وليفعل الله بعدها ما يريد.

الوافدون الجدد أتوا من الشمال.. فرع من قبيلة كتامة..

كان وادفل يمتلك أرضا خصبة تنبت الأطفال كما يقال..

يجنـي منهـا قناطير القمح فـي كل سـنة وكانت الأرض محـل أطماع الوافدين..

أنهـك كاهل وادفـل بالإتاوات والمكـوس.. عرضـوا عليه بيعها بمبالغ خيالية لكن الظروف أرغمته على تركها ليلا دون مقابل..

كان وادفل متزوجا من ثلاث نساء، أصغرهن «تاسعديت» حسناء المنطقة كلها.. كانت والأرض الخصبة محط أنظار الجميع.

وقعت تاسـعديت في عين قابض الضرائـب.. اقترح على وادفل تطليقهـا ليتزوجها هو مقابل مسـح ديونـه، لكن وادفل ثـار في وجهه وهدده بالقتل إن هو عاد للحديث عن الأمر.

اسـتمر القابض فـي طلبه واسـتمر وادفـل في رفضـه وهيجانه.. وجـاءت الليلة التـي وقعت فيها الواقعـة.. أتى القابـض لوحده تحت جنـح الليل واقترح علـى وادفل أن ينفـرد بزوجته تاسـعديت، فكانت الشرارة التي أشعلت النار.

وجـد وادفـل نفسـه يأخذ عصـا غليظـة ويهـوي بها علـى رأس القابض فسقط قتيلا.. وبقي وادفل في حيرة من أمره.

في تلك الليلة لم ينم واعتقد أنه سيساق في الصباح إلى السجن ويموت هناك ميتة الكلاب.

أمر زوجاتـه وأولاده بحمل بعـض متاعهم، ولم تكن إلا سـاعة حتى وجدوا أنفسهم يسلكون طريق المجهول.

قضوا الليلة مشـيا واسـتمروا بين المشي والاسـتراحة يوما آخر، وفـي الليلـة المقبلة قـرّر وادفـل الاسـتقرار فـي المنطقة التـي عرفت بـ»عين المعقال».

كانـت العلاقة بين القبيلتين رسـمية إلى أبعد الحـدود.. لا كلام

بين الكبار إلا في المناسبات الكبيرة.. وكان الصغار يرعون الغنم معا، وأحيانا تقع مشاجرات بينهم لكنها تنتهي في الحقول..

وبقيت عين المعقال ذلك النبع الذي أقاموا حوله خزّانا مبنيا بالحجارة تشرب منه الأنعام، والمكان هو شركة بين القبيلتين.

وأما أوقات جلب المياه إلى البيوت فكانت مقسمة بقانون وضعه شيوخ القبيلة الهلالية واحترمه الآخرون.. أوقات للرجال وأخرى للنساء، ومن يخالف هذا القانون يعاقب بشدة وتعزره القبيلتان.

كانت في القبيلة الهلالية فتاة اسمها الياقوت.. عندما تزوجت أمها كانت لا تحبل.. زارت ضريح «سيدي الزواوي» وتضرعت له باكية وقد سمعت حكايته البعيدة من ألسنة العجائز.

قالت: «لو رزقني الله ولدا فسأسميه الزواوي، وإن رزقني بطفلة فسأسميها «الياقوت»»، وشاء الله أن تحبل في تلك الأيام وارتاحت من الكابوس الذي أرهقها طويلا.. كان زوجها يهددها بالطلاق بعد أشهر من زواجهما إن لم تحبل منه.. قال لها:

– العيب فيك يا بقرة.. أنا رجل وأقدر على مضاجعة كل نساء الدنيا.

وقد أكلت من صلصال جامع سيدي الزواوي وأنجبت بعد سبعة أشهر فتاة في غاية الجمال، فكانت عند وعدها وأسمتها «الياقوت».

كانت الياقوت تكبر بسرعة وكان جمالها يكبر معها.. قيل لأمها أن تعلق لها إزارا من قبة سيدي الزواوي و»خامسة» من النحاس أو الفضة اتقاء للعين.. لقد أصبحت محط أنظار كل سكان قرية عين المعقال.

بدأ الخطّاب يتوافدون عليها ولم تتجاوز سن السادسة.. كان

أبوهـا يرفض التكلـم في الموضـوع أصلا ويطلـب تأجيـل الأمر إلى حينه.

كان الكل يحبها ولا أحد يعلم لمن سـتكون في النهاية.. شباب القريـة ينسـجون الأكاذيـب عـن وقوعها في حبهـم وكل واحـد يعلم مسبقا أن حكايته لن يصدقها أحد، لكنه يضطر يائسا لمحاولة إسكات الآخرين.

ويقال إنه في ليلة جاء في الحلم رجل وقور إلى الياقوت وأراها صـورة الـزواوي وأوصاهـا بقبوله زوجـا لهـا، وزار في الليلة نفسـها الزواوي وأراه صورة الياقوت وأوصاه بالزواج منها.

والزواوي أحد شـباب القرية من الفرع الكتامي.. يتيم الأب وقد مات والده بسبب مرض غريب.. تركه مع أمه ولـم يتجاوز عمره ثلاثة أشـهر.. لم تشـأ أمه الزواج مـرة أخرى ووهبـت عمرهـا لتربيته رغم جمالها الفاتن وتهافت الخاطبين عليها في كل مرة.

في ليلة الحلـم تلك بدأت قصة الحب التي جمعت بين القلبين، وفـي صباح الغـد كان الزواوي فـي قمة الهضبـة وراء الشـجرة، وفي السـفح عند النبع كانت الياقوت تحمل الماء.. وقعت العين في العين وقال الاثنان في وقت واحد: «سـبحان الله» دون أن يستطيع أحدهما إكمال ما يريد قوله.

تأججت العواطف فجـأة بين الطرفين وكانـت بداية قصة الحب التي أصبحت مضرب المثل في قرية عين المعقال.. تغيّر حال الياقوت وأصبحت أسـيرة شرود شـديد، وعندما ضاق صدرها بما حمل ألقت بـه على أمها.. انفجرت الأم في وجهها وأخبرتها أنها تسـير في طريق الخطأ.

- ليس من حق المرأة أن تحب.. تتزوج الـذي يختاره لها كبار القوم، وبعدها تصبح عبادة الرجل من عبادة الله.

وبعدها كلمتها عما حصل لزكية، المرأة التـي خالفت الأعراف وأحبت رجلا، وعندما جاء رجل آخر لخطبتها وسمعت بموافقة الشيوخ، خرجت إلى مجمع الرجال وأعلنت رفضها مصرحة بمن تحب، فصرخ أبوها ونادى أبناءه الرجال.. فـي رمش من العين قيدوا المسكينة، ثم أخذ الأب السكين وذبحها كما تذبح البقرة، وعند ذلك مزّقوا لحمها ورموا به إلى الكلاب، ومما زاد في مأساة تلك الذبيحة المسكينة أنها ضحّت بحياتها من أجل لا شيء.

في الأسبوع نفسه خطب الرجل الذي أحبته زكية، ابنة عمها رابحة وأقام لها عرسا لم تشهد له القرية مثيلا، وكأنه بفعلته تلك كان يتعمد الإساءة إلى روح المسكينة زكية التي أكلتها الكلاب..

ثم ذّكرت الأم ابنتها بالحكمة الشهيرة التي تقول: «يا بنتي.. الرجال والزمان.. مافيهمش لامان».

أبدت الياقوت عندها رغبة في اتباع تعاليم أمها، لكن عاطفتها خانتها في النهاية، وجرفتها شيئا فشيئا إلى وساوس شتى، وبقيت مشغولة الخاطر شاردة، فلا هي استطاعت نسيان أمرها ولا هي استجابت لرغبة قلبها الجارفة، ومع استمرار دوّامتها بقي أهل القرية ينسجون حولها حكايات غرامية لا وجود لها إلا في خيالهم والكل يدّعي بأنه «ذياب الهلالي» دون غيره.

وأما الزواوي الفتى اليتيم المنحدر من الفرع الكتامي للقرية والذي كان وحيد أمه وقد مات أبوه بمرض غامض في ريعان الشباب، فقد تزوج أبوه ولما لم تنجب له زوجته الأولاد في السنوات الأولى

هدّدها، قائلا لها إنه عازم على الزواج مرة أخرى بعد سنة إن لم تنجب منه أولادا، وبعد أشهر معدودات حملت الزوجة الشابة، لكن فرحة الحمل تلك لم تكتمل وسقط الرجل ضحية لمرض الغامض، فانتشرت الأورام الخبيثة في جسده ولم تتمكن جميع الأعشاب المعروفة من مداواته، وعندما أنجبت له زوجته ذلك الفتى البهي سموه «الزواوي» تيمنا بالولي المعروف ليكون فأل خير على العائلة وطمعا في شفاء الأب العليل الطريح الفراش.

بعد حوالي ثلاثة أشهر من ميلاد الزواوي، توفي والده ودفن بمقبرة سيدي الزواوي، وترك الأرملة الشابة الجميلة، ومرت أشهر العدة بسرعة وراح الخطّاب يتهافتون عليها، لكنها رفضتهم جميعا وقررت أن تعيش من أجل شخص واحد فقط هو ابنها الزواوي.

اشتعلت النار بين قلبي الياقوت والزواوي، وبدأت قصة الحب التي حفظتها ذاكرة القرية وتناقلها الناس من جيل إلى جيل.. في البداية لم يكن الاتصال بينهما إلا عن طريق نظرات من بعيد، مسروقة مع صرامة أهل القرية والعيون المتأهبة في كل الاتجاهات.

ولما أصبحت الياقوت محور كل حديث وجمالها فتن الجميع كبارا وصغارا، صار الأمر يحرج والدها وأهله كثيرا، وعندها قرروا في اجتماع لم يتم إنهاء أمرها والتخلص من مسؤوليتها التي تزداد ثقلا مع الأيام، وأجمعوا على قرار تزويجها و»سترها» كما كانوا يقولون حتى لا تحولها الأيام إلى عار أبدي يلتصق بالعائلة.

وفجأة سرى في القرية خبر نية الشيخ إبراهيم، كبير أعيان الهلاليين في خطبة الياقوت لابنه التهامي، فكان الخبر صاعقة نزلت على قلوب عشّاق الياقوت وهم كثر، لكنه سرّ أهل الياقوت الذين

لم يتوقعوا أحسن من هذا الحل لتلك المعضلة التي أرهقتهم، فبيت الشيخ إبراهيم مضرب للمثل، رخاء ورفعة بين عائلات القرية كلها، وابنه التهامي رجل في مقتبل العمر، طاقة من النشاط المتقد وعلى قدر من الجمال ونظافة الهندام، ولا مجال للتفكير في الرفض.

- لقد انفتحت لك أبواب السماء في ليلة قدر يا بنيتي.

حدثت الأم ابنتها، ثم أضافت تقول لها:

أعرف بأنك قلقة يا بنيتي، وأنت تدركين بأن هذه الزيجة تتمناها كل فتاة، فحاولي أن تنسي أمر الزواوي هذا الذي أخذ قلبك.. أنا أكبر منك سنا وتجربة، فمن فاتك بليلة، فاتك بالمقابل بحيلة، فأمر حبك للزواوي مجرد عاطفة صغار السن ووهم ليس غير، وسوف تقتنعين بذلك لاحقا.. لقد عشت تجربة مشابهة لتجربتك قبل زواجي وقد أخبرتك بذلك قبل الآن، لكني نسيتها تماما، ولم أعد أذكرها كما أذكر ذكريات بعيدة لم يعد لها وجود في الواقع، فليبارك لك الله هذا الزواج، وحظ سعيد يا بنيتي العزيزة.

كانت الوالدة تظن بأن الياقوت سوف تجيبها ولو بالرفض، لكنها لم تظفر منها بجواب وبقي الصمت المحير مسيطرا عليها.. شعرت الياقوت أن مصيرها قد سطروه وانتهى الأمر، كتمت دموعها وباتت في حسرة كبيرة.

في تلك الليلة القمراء فكرت كثيرا، وعندما استسلمت للنوم التقت بحبيبها الزواوي في الحلم، شكت له أمرها وعبّرت له عن حبها الكبير، فضمها إلى صدره وضمته إليها وبكيا معا كما يفعل الأيتام.

قيل أنه في اللحظة نفسها كان الزواوي في نومه يرى الحلم

نفسه.. نهضا من الحلم في اللحظة نفسها، وقد وجد كل منهما الدموع في وجهه.

أحس الحبيبان ساعتها أن بابا انفتح وسط الحصار الذي ضربته تقاليد القرية.. أصبح الزواوي يلتقي الياقوت في الأحلام ويتكلمان معا عن أحلامهما وهمومهما اليومية.. كانت تقص عليه حكاية الجازية وذياب الهلالي وكان يقص عليها حكاية «صغرونة» سابعة أخواتها مع «ذيب الغابة»، وقد صار النوم ملاذهما الوحيد بعيدا عن أعين الرقباء، وتناسى الحبيبان مؤقتا المشكلة الكبرى التي تنتظرهما. لكن هاجس الخوف لم يلبث أن عاد من جديد مع قرب تقدم الشيخ إبراهيم لخطبة الياقوت لولده التهامي بشكل رسمي.

قرّر الشيخ تنفيذ رغبته، فأرسل خبرا إلى أهل الياقوت، وكانت السعادة تغمر قلبي أمها ووالدها، وأما هي فكانت في حيرة كبرى لم تستطع الجهر بها لأحد.

كان اليوم يوم أثنين من أيام الله، وجماعة الشيوخ تستأذن لدخول بيت أب الياقوت، وعند الدخول وبعد الترحيب أخذوا يتشاورون في الأمر المنتظر.

قال أحدهم:

جئناكم بالحسب والنسب، نطلب ابنتكم الياقوت لولدنا التُهامي مثلما تقتضيه شريعة الله.

كان الأمر كله مجرد إجراءات شكلية، فكل شيء كان مفصولا فيه من قبل بما في ذلك عبارات المزاح.

تليت الفاتحة، وأصبحت الياقوت في «رقبة» التهامي بشكل رسمي، وأعطيت الإشارة للنساء من وراء الستار لإطلاق زغاريد

المباركة والتأييد الضمني.

وجاء الليل وحلت تلك اللحظة التاريخية.. قضت الياقوت الليلة بيضاء، وفي لحظة جنون غادرت البيت في غفلة من أهلها، حاصرتها الكلاب في وقت متأخر من الليل كان ناس القرية فيه نياما، لكن الياقوت استمرت في مسيرها رغم خطر الكلاب وهي متجهة إلى غير هدف.

صعدت فوق الهضبة الكبيرة التي تجاور القرية، ولم تنتبه للصخرة التي كانت أمامها، فاصطدمت بها وسقطت من الأعلى مغشيا عليها، وبقيت مرمية بدون أيه حركة، وأخذت الكلاب تنهش من لحمها الطري ولم تكن تدري في غيبوبتها ماذا حصل لها.

في الليلة نفسها كاد الزواوي أن يغادر هذا العالم، كان يهذي من شدة الحمّى ويقول كلاما مبهما لم تفهم منه أمه التي كانت بجانب فراشه إلا كلمات «الياقوت»، و»الكلاب»، وبقيت الأم وحيدة في تلك الليلة تبكي يائسة وهي تحضّر وصفات طبية تقليدية وتؤدي طقوسا مبهمة ورثتها عن أمها وتعلمت بعضها من عجائز القرية.

كانت أم الزواوي تعتقد بأن قبيلة كاملة من الجن سكنت جسد ولدها وبقيت تتصارع داخله، فاستحضرت كل ورقة مكتوبة لعلها تساهم في طرد الجن الذي يسكنه، ووعدت الولي الصالح سيدي الزواوي بكسوة خضراء اللون وبخور فور عودة ولدها إلى سابق عهده.

وفي الوقت الذي كانت فيه الكلاب تنهش من جسد الياقوت انفجر الزواوي من غيبوبة حمته وهو يقول: «الكلاب.. الكلاب»، وهمّ بالنهوض، لكن أمه أمسكته بكل قوتها، فانهار بعدها فاقدا للوعي وكانت المسكينة تخشى من هلاك ولدها في تلك اللحظة.

قبيل الفجر وبينما المؤذن يسير باتجاه المسجد، لمح حركة للكلاب غير عادية، فسار نحو المكان واكتشف الضحية وسرعان ما اتسعت دائرة العارفين بالأمر وشاع الخبر بسرعة فائقة في قرية «عين المعقال» كلها.

بدأت الأقاويل والشائعات تنتشر في أنحاء القرية، تحدث البعض عن تورط الجن في خطف الياقوت بينما ذهب تفكير أناس آخرين إلى أنها هربت مع رجل غريب تخلى عنها فور قضاء وطره منها، وأما الياقوت فقد نقلت إلى بيت أبيها وهي في حالة بين الحياة والموت، فقد كانت الدماء تسيل من أمكان متعددة من جسدها، وكانت مصابة بكسر في ساقها، وكان أبوها في وضعية نفسية متدهورة للغاية وهو مكسور الخاطر ومحطم الكبرياء.

فكر بعضهم في أن الزواوي هو من يقف وراء الحادثة، وهو من خطفها ليلتها وتسبب لها في تلك المأساة، لكن الشائعة تلك لم يصدقها أحد بشهادة من رآه عشيتها في حالته الصحية المتدهورة، والغيبوبة التي كان يعاني منها.

ولم ينتظر الشيخ إبراهيم طويلا، فلم يمهل أب الياقوت طويلا وجاءه مع نفر من شيوخ القرية طالبا منه فسخ عقد الزواج واتفق الجميع على أن يكون ذلك مقابل التنازل عن نصف قيمة المهر، فتم ذلك بسرعة وذهب الكل إلى حال سبيله وبقيت الياقوت لمدة طويلة طريحة الفراش قبل أن تنهض وعندها أصبحت تعرف في القرية بـ»الياقوت العايبة».

انتظر الزواوي هدوء العاصفة ثم فاتح أمه في أمر خطبة الياقوت.. لم تستوعب الأم الأمر وسقط الخبر عليها كالصاعقة،

فهـي لم تصدق أن يتـزوج وحيدها تلك الفتاة العرجـاء التي أصبحت حكايتها الغربية والمريبة على كل لسان.

- هل فقدت عقلك يا ولدي؟

سـألته وهي علـى حافة الانهيـار، ثم أبـدت معارضتهـا المطلقة للفكرة، ثم استشارت أختها الكبرى في الأمر فأشارا إليها هذه الأخيرة بالذهاب إلى «تركية المرابطة»، التي ستسـاعدها حتما في تجاوز تلك المشكلة.

ذهبت المرأة إلى المرابطة فعلا، وكان رأي تركية قاطعا..

- الزواوي مسحور.

- ....

- لقد أكل شـيئا من يـدي الياقـوت، ويجب أن تتطهر أحشـاؤه من ذلك الدنس الذي شـوّش على بصيرته وجعله منقادا إلى ما كانت تطمح إليه وتخطط له.

كتبت لها تميمة وأمرتها بأن تضعها في وسادة الزواوي، وأعطتها ورقة طلبت منها بأن تغسـلها في كوب من اللبن يشربه الابن وسرعان ما يسـتعيد رشـده وينسـى حكاية الياقوت إلى الأبد، وفي مقابل تلك الوصفـة طلبـت تركيـة المرابطة مـن والـدة الـزواوي أن تمنحها ديكا أسـودا وثلاثين بيضة وهددتها إن لم تفعل ذلك بـأن الوصفة لن تنفع في شيء وأنها ستفقد ولدها بشكل نهائي.

سارعت أم الزواوي إلى تطبيق الخطة بدقة متناهية، لكن النتيجة كانت معاكسـة تمامـا لما كانـت تطمح إليه، بـل أتت بنتائج معاكسـة تماما لذلك، فخاب أملها واستسلمت للأمر الواقع.

ازداد حـب الـزواوي للياقوت أكثـر من ذي قبـل، فأصبح يهذي

باسـمها في نومه ويقظته، وخشـيت الأم أكثر فأكثر من جنونه بشـكل تام، وعندما استشـارت أختها في الأمر من جديـد فنصحتها بالرضوخ للأمر الواقع وتحقيق رغبة الولد العاشـق، فكان ذلـك الأمر بداية للم شمل الحبيبين.

كلّف الزواوي بعضا من أهله وعشـيرته، ليخطبوا له الياقوت من أهلها، ففعلوا وأتوا خاطبين:

– جئناكم بالحسـب والنسـب أيها الشـيخ، نريد ابنتكم الياقوت زوجة لولدنا الزواوي.

سـاعتها لـم تسـع الفرحـة قلـب والدتهـا، فالبنـت التـي أثقلت كاهله وتناولتها ألسـن أهل القرية بالسـوء طويلا سـوف يرتـاح أخيرا مـن حملها، وافـق الجميع على الفور وكانت شـروط العقـد من قبيل تحصيـل الحاصل، وعلـت الزغاريد الفضاء وكان الـزواوي والياقوت في سعادة مطلقة.

أقيم حفـل الزواج فـي يوم مشـهود، كان فيـه الجو بـاردا منذرا بالمطر والرياح، وفجأة عمّ الهدوء.. تسـاقط الثلـج، فكان ذلك بمثابة فأل خير وسكان قرية عين المعقال لم يروا الثلج منذ سنوات عدة.

– هذا من سعد الياقوت.

قالت إحداهن.

وبدأت مجالس النساء في التكلم عن الياقوت وحكايتها، وكانت نـوّارة ابنة عم الياقوت أشـد المتضـررات من ذلك المـآل، فقد كانت مقتنعة بأنها الأجمل والأحق بالزواوي ولكن....

– السـعد الأعـوج، وأم الياقـوت وصلاتهـا المربيـة بالسـحر والمشعوذات حددت النتيجة في الأخير.

أضافـت قائلـة والدموع في عينها والحسـرة تمـلأ قلبها، وتمنت من أعماق وجدانهـا أن تحل كارثة طبيعية في تلـك الليلة تريحها من هواجسـها القاتلـة وتذهـب بكل النـاس إلـى الجحيـم، أو أن يحدث مكـروه للياقوت يشـفي غليـل قلبها الجريـح، لكن الأحداث سـارت على عكس ما كانت تشتهيه نوّارة، فكانت تلك الليلة الأسعد في عمر الياقوت والزواوي، وفاتحة لعلاقة متينـة ملأت قلوب الكثير من أهل تلك القرية رجالا ونساء حسدا وغيرة قاتلة.

كان الثلج المتسـاقط فـي تلك الليلـة بمثابة فأل الخير، ومؤشـر ثراء في تلك العلاقة الجديدة، ولم تمض إلا أيام معدودة حتى حبلت الياقوت وبعد أشهر من ذلك أنجبت توأمين جميلين، طفل وطفلة في منتهـى الجمال، ثم انفتح حزامها كلية وأثمـرت العلاقة أطفالا كثيرين فـي أوقات متقاربـة، وعند ذلك تغيـر لقبها من «الياقـوت العايبة» إلى «الياقوت الرينوبة».

الوبــــاء

كانت قرية عين المعقال تقضي أيامهـا المكررة برتابة تامة، يولد الناس، يتزوجـون، ينجب بعضهـم، ثم يموتـون واحـدا وراء الآخر، ولـم يكن من مصـدر للرزق سـوى الزراعة والرعي، ولا يكسّـر ذلك الروتيـن سـوى بعـض الوافديـن القليلين جـدا، وكان التجـار من بين هـؤلاء الوافديـن القليليـن، وحيـن يأتي تاجر مـا يقبل الأطفـال بفرح وانطلاق ويهتفون بأهازيج جميلة، بعضهم يحمل بعض ما هو موجود في البيت من جلود أنعام وصـوف يقايضونها بالحناء وبعض الحلوى والتيـن والزيتـون، ومـن لا يملـك الجلـد والصـوف يقضـي حينا من الوقت في حسرة وغيرة وحسد.

لكـن مـا حدث فـي ذلك اليـوم، غيّـر من مصيـر القريـة وبقيت الأجيـال تتناقلـه، فبينمـا كان الرعاة يتأهبـون للعودة بالقطيـع في آخر النهار، لمح أحدهم رجلا بجوار دابة محملة بالبضائع، الرجل الغريب كان في حالة غير طبيعية أثارت دهشة وخوف من رآه بعد ذلك.

- ما الذي جعل الرجل في تلك الحالة؟

تسـاءل الرعـاة والدهشـة تمـلأ القلوب، ثم أسـرعوا فـي العودة إلـى القرية ليلقوا علـى كبارها بتلك الأسـئلة المحيّرة بخصوص ذلك الغريب، وما أن سمع الشـيوخ بالأمر حتى أرسلوا فورا ببعض الشبان للإتيـان بالغريب الـذي يبدو عليـه المـرض، للتكفل به حتى يسـتعيد عافيته وليرحل بعدها إلى الوجهة التي يريدها.

عندما ذهب الشبان إلى مكان الغريب وجدوه في حال من الغيبوبة وآثار الإسهال تملأ مكانه، ودون انتظار حملوه على ظهر دابة وساقوا دابته المحملة بالبضائع وسارعوا به صوب قرية عين المعقال.

وصلوا بالغريب إلى القرية، وقبل أن يتمكن كبارها من القيام بواجب الضيافة تجاهه لاحظوا أن الحركة غادرت جسدته. تقدم «محمود الطالب» وكان شيخا وقورا من حملة القرآن إلى جسم الغريب يتفحصه، وفورا تأكد من الوفاة فأعلنها فورا، فأصبح من واجب أهل القرية غسل الميت الغريب وتكفينه ثم الصلاة عليه كأحد أبناء القرية، رغم عدم معرفتهم باسمه وموطنه ولغته ودينه، وبالفعل شرعوا في ذلك وهم ينفذون طائعين ما قاله محمود الطالب.

دفن الغريب في مقبرة سيدي الزواوي، وكان عدد المشيعين كبيرا كأن الميت من أعيان القرية، والكل يعتقد بأن حكاية الغريب دفنت معه وانتهى أمره وسيبقى مجرد ذكرى بعيدة يذكرها من كانت له ذاكرة قوية، إلا أن الأمر كان عكس ذلك تماما، فلم يكن أحد يتصور أن الأمر بداية لكارثة ستأتي على القرية في الأجل القريب.

مع غياب الغريب، بقيت دابته والبضائع التي تحملها يثيران مشكلة في القرية:

- ماذا نفعل بتلك التركة.. كيف نتصرف فيها؟

تساءل الجميع في حيرة، وأنظارهم تتجه تلقائيا صوب محمود الطالب، وكان الطالب أكثرهم صمتا، وكأنه يرى في الكلام مسؤولية كبرى، تجعله يتجنب أي خطأ في التقدير قد تنجر عنه نتائج غير حسنة.

بعد صلاة العشاء اجتمع كبار القوم في المسجد في جلسة سمر

اعتــادوا على مثلهــا، وكان مــن المتوقــع أن يبت محمــود الطالب في أمر تركة الغريــب الهالك، وعندما تكلم الشــيخ كان حديثه المقتضب بمثابة القــرار الذي وجب تنفيــذه على الفور.. تبــاع الدابة بما حملت في السوق، وعائدها المالي سيبقى وقفا في سبيل الله.

محمود الطالب الذي غســل جثة الميت وأشرف على دفنه وبت في مصير تركته، شــعر فجأة بتدهور في حالته الصحية، وعندها ذهب إلى أحد العارفين بأســرار التداوي بالأعشــاب الطبيــة، فنصحه بوضع خليط من الحشائش فوق رأســه وبأن يلف ذلك بمحرمة إحدى نسائه مع قراءة المعوذتين.

- ثم تصبح كالحصان.

ختم الطبيب نصيحته وهو يضحك بصــوت جهوري، ولم ينتظر الطالب طويلا لينفذ الوصفة بحذافيرها.

فــي تلــك الليلة تــأزم حــال محمــود الطالــب أكثر فأكثــر، قضى شــطرا كبيرا من الليل خارج البيــت وهو يعاني من إســهال لم ير مثله في حياته الطويلة، مع حــالات من الإغماء من حين إلى آخر، وعندما تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود لم يذهب الطالب إلى المسجد كعادته، وعندما غاب عن ذلك الموعد المقدس في ســابقة لم تحدث منذ ســنين طويلة؛ شــعر أهــل القرية بالرعــب والخوف مــن مجهول، وتشــاءم البعض بهلاك الرجل في القريب وهو يعانــي من تلك الآلام القاتلة.

فــي صــلاة الصبــح تقــدم أحــد حملــة القــرآن نائبا عــن محمود الطالب فــي إمامة الناس، وعند انتهاء الصلاة ذهب الجميع رأســا إلى بيــت الطالب لعيادته والاطمئنان على صحتــه، وعندما وصلوا وجدوه

في غيبوبة عند جدار البيت وآثار الإسهال في المكان، وعندها تذكر الجميع مشهد التاجر الغريب الذي دفنوه قبل أيام وباعوا دابته بما حملت في السوق.

- هي العدوى إذن؟..

قال البعض متسائلا، لكن البعض الآخر أراد أن يهوّن من الأمر، قائلا بأن القضية كلها لا تعدو أن تكون مجرد إسهال عادي وسرعان ما يزول تحت تأثير الأدوية التي تناولها المريض، وسيعود محمود «طالب» القرية إلى سابق نشاطه وإمامته للناس في أوقات الصلاة المختلفة.

لم يستمر ذلك السجال طويلا، والإسهال يتمكن في الأخير من محمود الطالب، الغيبوبة كانت نهايتها مفزعة للجميع.. مات محمود الطالب واستولى الشك على قلوب الناس أكثر من ذي قبل.

تحول بيت محمود الطالب إلى قبلة للناس، صغار القرية وكبارها يقدّمون التعازي، وجثة الميت تم غسلها في بيته، ثم كفنت وحملت على الأكتاف إلى مثواها الأخير، وعند مقبرة سيدي الزواوي قرأ الحافظون ما تيسر من آيات القرآن، ثم تجمعوا في شكل حلقة كبيرة شبه مغلقة يكررون قصيدة البردة للإمام البوصيري.

العيون ممتلئة بالدموع، والقلوب بالحسرة، وأصوات الحافظين ترتفع وتنخفض:

«ما سامني الدهر ضيما واستجرت به
إلا ونلت منه جوارا لم يضم
ولا التمست غنى الدارين من يده
إلا استلمت الندى من غير مستلم

لا تنكر الوحي من رؤياه إن له
قلبا إذا نامت العينان لم ينم
وذاك حين بلوغ من نبوته
فليس ينكر فيه حال محتلم».

أدرك الكبار المجربون من القوم أن الوباء أصاب قرية عين المعقال، لكن الجميع كان يخفي مخاوفه عن الآخرين، وتمنى كل واحد أن تكون مخاوفه في غير محلها، وراح بعضهم في طمأنة البعض الآخر وكل واحد متأكد في أعماقه بأنه واهم، يقول بأن محمود الطالب مات لأن أجله أتى وألا علاقة لموتته بحالة الغريب الذي لا يعرف له أحدهم أصلا ولا حكاية، ذلك الغريب الذي ينام في مقبرتهم وقد دفنوا معه مكرهين سره على الأبد.

وبينما حلقة الذاكرين مستمرة في ترديد البردة، انتشر خبر بسرعة البرق بعث الشلل في مفاصل الناس، فهاهي ضحية أخرى تفقدها القرية، إنها زوجة محمود الطالب التي لطمت خدها عند هلاكه وكادت تمزق جسدها بالسكين جراء ترملها مبكرا وهي اليتيمة منذ سن مبكرة، وقد بقيت في غيبوبة طويلة عند وفاة زوجها، وبقيت النسوة يحطن بها يرثين حظها التعس الذي جرها من نكبة إلى أخرى ويعددن محاسنها ومناقبها، فمنذ عرفنها لم تسمع من فمها إحداهن كلمة فاحشة واحدة، وكانت تتصدق بكل ما تملك وتكسي العراة الحفاة وهي محتاجة.

تحولت غيبوبة أرملة محمود إلى غثيان صاحبه إسهال حاد، وتكررت حالة محمود الطالب معها أمام أعين النساء وعندما بلغت ذلك الحد أدركت النسوة أنها ستلقى مصير زوجها لا محالة.

فارقت المرأة الحياة بعد دخولها ذلك الطور من المعاناة، وبقيت في بيتها النسـاء اللواتي جئن فـي الأصل لتعزيتها فـي زوجها الراحل حديثـا، يعـددن مناقبهـا ويتحدثـن عن نيتهـا التـي جعلتهـا ترحل مع زوجها الذي أحبته، فـي وقت واحد تقريبا، وتمنت الجماعة أن تلتقي الرحلة مع زوجها قريبا في حياة الآخرة، وهن يعتقدن بأن مكانهما مع الخالدين في جنات عدن.

ومع رحيـل الزوجين بتلـك الطريقة المشـابهة لرحيـل الغريب، تحول الشـك الـذي راود الجميع إلى يقيـن، وحقيقة مرّة وبـدأ الوباء الـذي حمله الغريـب الهالـك يكتسـح قرية عيـن المعقـال، ولا يعلم غيـر الله متى سـيرحل هذا الوباء اللعين وكم سـيأخذ مـن ضحايا في طريقه.

أصبحـت قلـوب الناس أكثـر خفقانا، وأخـذ كل فرد مـن القرية يفكر ويتكهن.. على من سيأتي الدور في المرحلة القادمة؟. وفي أثناء ذلك قـرر كبار القوم أن تتضاعـف حلقات تلاوة القـرآن وبردة الإمام البوصيري، وطلبوا مـن عموم الناس أن يطهـروا قلوبهم من الضغائن والشوائب لعل الله يرفع غضبه المسلط على القرية قبل حلول الكارثة الكبرى.

بـدأ حفـاّظ القريـة ومتعلموهـا فـي الجلـوس متطهريـن أطـول الفترات الممكنة، يتلـون القرآن ويرددون بردة الإمـام البوصيري التي قيـل بأنها تمحي الذنوب وتقي من الشـرور وأصبحـت القرية مع هذا الحال كخلية النحل من شدة الحركة وكانت الأصوات تتعالى وتسمع من بعيد:

سريت من حرم ليلا إلى حرم

كما سرى البدر في داج من الظلم
وبت ترقى إلى أن نلت منزلة
من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها
والرسل تقديم مخدوم على خدم
وأنت تخرق السبع الطباق بهم
في موكب كنت فيه صاحب العلم
حتى إذا لم تدع شأو لمستبق
من الدنو ولا مرقى لمستنم

كانت الجموع غارقة في الترتيل وترديد البردة وكأنها تعزي نفسها وتحاول استقبال قدرها المحتوم في طمأنينة وخشوع، وتناقل الناس انتقال العدوى إلى الأنعام والبهائم، فقد قيل مثلا أن بقرة الشيخ إبراهيم ماتت جيفة قبل ليلة.

- يا رب.. أمت الأبقار والأنعام وكل الدجاج وأرحم عبادك الصالحين وأطل في أعمار الرجال.

قالت الحاجة الريم، ثم أضافت بأنها كانت تتوقع الأمر وقد تنبأت به قبل بدايته، فقبل شهور نبتت الأسنان اللبنية لابنة محمود الطالب المتوفى في الفك العلوي أولا وهو أمر يدعو إلى التشاؤم وينذر بشر كبير قادم قد يهلك الزرع والضرع، فمن ساعتها أيقنت أن الكارثة آتية لا شك فيها، لكنها لم تبح بتك النبوءة لأحد إلا زوجها الذي سخر من كلامها وأتهمها بالدروشة والتخريف.

وسرعان ما انتشر كلام الريم بين النساء وكلهن مصدقات، وقد عضدته بعضهن بقولها أن علامات شؤم كثيرة انتشرت قبل الوباء،

منهـا ما فعلته إحدى البنـات عندما عمدت إلى قص شـعرها من جهة الجبهـة، وقـد نالت جزاءها فـي الحين ضربـا مبرحا من أمهـا وأخيها الأكبر.

ازداد عـدد ضحايا الوباء بدرجـة مفزعة، وفي هـذا اليوم توفيت العجوز سـعدية، لكـن البعـض ممـن أرادوا التخفيف وحمـل النفس والناس على الصبر قالوا بأن أمر موتها لا علاقة له بالوباء، فقد بلغت من العمر عتيا وماتت بداء الشـيخوخة، لكن ولدهـا قطع كلام الناس وأكد بـأن المتوفاة أصيبت بأعـراض الوباء المعروفـة وماتت بالطريقة التي هلك بها أولئك الهالكون.

كان مجلس عزاء العجوز صغيرا، فالبعض كان مشـغولا بمرضه أصـلا، والبعض يتعبد اسـتعدادا للقدر المسـطر، والبعـض الآخر كان مرابطا في مقبرة سـيدي الزواوي يرتل القـرآن وبردة الإمام البوصيري وآخرون يقومون بخدمة المقرئين.

قال الشيخ إبراهيم وكان في مجلس عزاء:

لقـد تكلم سـيدي الزواوي عن هـذه المصيبة منذ سـنين طويلة، وأخبر بما يحدث فعلا في هذه الأيام.

- أنا أسـمع بهـذا الأمر لأول مـرة في حياتي.. لمـاذا لم تحدثنا عن المصيبة قبل وقوعها وأنت تعلم بها منذ سنين؟

رد أحد الشبان.

- لقـد تكلمـت مرارا فـي الأمر، لكنـي لم أحض بسـامع واحد والناس في صمم عن كلامي.

- المهم.. ماذا قال بالضبط؟

- ذات ليلـة وكان في أواخر أيامه، كان جالسـا فـي بيته والناس

يحيطون به لسماع بعض الحكم والنصائح، لكنه لم يتكلم كعادته وكأن فكره ينظر إلى الغيب، وفجأة صاح:

«يجي طور ويروح طور

وياتيكم بابور

ياخذكم للقبور

والمحقور

يقعد فيها يدور».

في تلك اللحظات ساد الجلسة صمت قاتل، لقد أيقن الجميع أن القضاء لا راد له، وبقي كل واحد يفسر المقولة حسب فهمه، ولئن اتفقوا على أن الهلاك قادم فقد اختلفوا في تفسير من هو «المحقور» المقصود في تلك المقولة، وبينما الناس مجتمعون في ذلك المكان، بلغ مسامعهم خبر موت طفلة عمرها ثلاث سنوات.

- لا شك أنها ماتت متأثرة بالبوحمرون.

- ما في ذلك شك، لقد كانت تشكو من أعراضه المعروفة، وقد نصحت أباها بأن يلبسوها ثوبا أحمرا وأن تبخر على حمامة مذبوحة.. إنها ابنة عمي الحسين، وهي طفلته الصغرى.

كان الجميع يتهرب من الحقيقة المؤلمة، لقد كذبوا على أنفسهم ولم يكونوا يجرؤون على مناقشة أمر تلك الكذبة.

تواترت أخبار الموت في كل ساعة ولحظة حتى أصبح سماع خبر موت قريب أمرا عاديا، ولا يدعو إلى الفزع، وقلوب الناس كأنها في غيبوبة، وقل ذهاب الناس إلى بيوت العزاء بشكل ملحوظ، وأصبح كل فرد من القرية يخشى من أن يكون الضحية القادمة في قائمة الهلكى المفتوحة.

عند هـذا بدأ الحديـث عن قرب السـاعة، واسـترجعت الأذهان صـورة الغريب الذي جـاء بالوباء إلـى القرية، ومـات دون أن يتعرف عليـه أحـد أو حتـى يكلمه أحـد، وفجـأة أصبح ذلـك الغريب أشـهر شخص في القرية مع أن لا أحد يعرف اسمه.

- وماذا عن دابته؟

أجمع الكل على غرابة حكايتـه، وذهبت العقول بعيدا في تأويل ماهيته وسيرته.. قال بعضهم أنه ليس من بني البشر ويحتمل أن يكون من الجن أو أن يكون مخلوقا أرسله الله لمعاقبة عباده المذنبين.

- وماذا لو كان ذلك الغريب نفسه المسيح الدجّال؟

لكن الجواب جاء من المجلس نفسه:

المسيح الدجال ممسوح العين، قبيح المظهر.

- ومـن قال أنه ليس أعـورا؟، فقد وجداه مريضـا ولم ينتبه أحد إلى حالة عينيه، فمن المحتمل أنه كان كذلك لكنه أخفى الأمر لحاجة في نفسه.. لقد تسبب في هلاك قرية بأكملها.

وتطـور الحديث ليشـمل يوم القيامـة وعلاماته الصغـرى، وعدد بعضهم العلامات الصغرى التي اتفقت بشأنها الجماعة، وبقي الجميع ينتظـر اليوم الـذي ستشـرق فيه الشـمس من المغـرب لتكـون خاتمة الفاجعة التي ألمت بقرية عين المعقال.

- ولماذا تنتظرون شروقها في الصباح؟، فقد تشرق في أية لحظة حتى بعد الغروب العادي بقليل.

- اليـوم هو الثلاثـاء من أيـام الله.. مـازال بعـض الوقت، ومن المعروف أن القيامة تقوم في يوم جمعة.

- وماذا عن العلامات الأخرى؟

- خروج الدابة التي تطبع.

- تطبع ماذا؟

- تطبع العباد بطابع خاص.. ألا تعرف هذا يا جاهل؟!

- تلـك هي دابة الغريب، لا شـك فـي ذلك، إنه بـلا أدنى ريب المهدي المنتظر وتلكم هي دابته.

وتوسـع الحديث عن الدابة وتضاربت بشـأنها الأقـوال، وأصبح الاهتمـام منصبّـا فجـأة على دابـة الغريـب لأول مـرة، تلـك التي أمر محمود الطالب أول ضحايـا الوباء في القرية ببيعهـا مقابل مال يكون وقفا في سـبيل اللـه، لكن كيـف بيعت تلـك الدابة؟، ومن اشـتراها؟ وهل هي دابة فعلا مثل بقية الدواب، أم هي مختلفة؟

أجمع الكل على غرابة شـكل الدابة تلـك، لكن أحدهم لـم يكن يهتم بالأمر ساعتها لسبب لا يعلمه إلا الله، فذيلها أقصر بعض الشيء وحتى شكلها عموما غير مألوف.

لقد بيعـت تلك الدابة بما فيها في السـوق، وكانـت طريقة بيعها تبعـث على الحيـرة فعلا، فمـا إن دخلـوا بها إلى السـوق حتـى أقبل عليهـم رجل بلبـاس أبيـض ويحمل في يـده اليمنى سـبحة ولا يغادر الذكر لسـانه، وقد أحدث مظهره ذاك شـعورا غريبا في أعماقهم وأكد كل من كان سـاعتها في السـوق بأنه لم يسـبق له رؤيتـه قبل ذلك في حياته.

وكأن ذلـك الرجل دخل السـوق خصيصا من أجـل الدابة، وقد أصر على شرائها بما فيها بأي ثمن كان، وعندما اشتراها بثمن مرتفع، أضاف فوق ثمنها كيسا إضافيا من المال قائلا: «أموال الوقف يباركها الله»، مـع أن أحدا من أهل القرية لم يخبره بأمـر الوقف ذاك، وأخيرا

أضاف جملة تدعو إلى الحيرة والتأمل: «أعانكم الله على الأيام القادمة».

أخذ الشيخ الدابة بما عليها وبقي من كان في السوق مسمّرا في مكانه سارحا بخياله، لقد كان الوقت فجرا حينها، تذكر بعضهم كلامه المبهم فأراد أن يستفسره لعله يظفر بجواب، لكنهم لم يجدوه رغم سعيهم في كل الاتجاهات، وشيئا فشيئا خارت قواهم واستسلموا لليأس. لكن الأسئلة بقيت معلقة في قلوبهم على شكل حسرة، وعندها لم يبق لهم سوى العودة إلى القرية بالمال الكثير الذي منحه إياهم الشيخ الشبح، وفي الطريق إلى عين المعقال اتفقوا بعد التشاور على إخفاء الأمر على أهل القرية تجنبا لأي مشكلة يمكن أن تنجر عن ذلك، أو هكذا خيّل لهم.

عند ذلك تذكر الناس محمود الطالب أول ضحايا الوباء الذي كان مرجعهم في كل كبيرة وصغيرة، فلو كان حيا لهبوا إليه مسرعين ليكشفوا له السر ليفك لغز تلك الدابة الغريبة والشيخ الشبح الذي اشتراها بتلك الطريقة الأكثر غرابة، ومع اليأس خطر على بال أحدهم اللجوء إلى الأخضر بن محمود الطالب، رغم حداثة سنه، فقد ورث بعض علم والده، ولا شك أنه يقرأ من الكتب التي ورثها عنه، مالا يعرفه باقي أفراد القرية مجتمعين.

هبوا رأسا إلى بيته، ودون مقدمات سألوه عن الأمر، ودون انتظار ذهب الشيخ الصغير مباشرة إلى صندوق الكتب العتيق، وعندما تصفح الأغلفة وقرأ بصوت مسموع «بدائع الزهور في عجائب الدهور للعالم الفاضل والهمام الكامل الشيخ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي.. نفعنا به والمسلمين أجمعين»، أخرج الكتاب من الصندوق وراح

يقلب صفحاته بسرعة، وسرعان ما يتوقف في متن الكتاب ويقرأ بصوته الجهوري: «بينما عيسى يطوف بالبيت فتضرب الأرض وتشق ما يلي المسعى، فتخرج من هناك الدابة، فأول ما يخرج منها رأسها وهي ذات ريش زغب كريش الطير ولها جناحان ورأسها يلمس السحاب ورجلاها تحت تخوم الأرض، وقال السدي إن رأسها كرأس الثور وعيناها كعيني الخنزير وأذناها كأذني الفيل ولونها كلون النمر وصدرها كصدر الأسد وقرنها كقرن الإبل وذنبها كذنب الكبش وقوامها كقوام البعير ووجهها كوجه الإنسان ولا يدركها طالب ولا يفوتها هارب ومعها عصى موسى وخاتم سليمان فتختم وجوه الكفار بخاتم سليمان وتحلو أوجه المؤمنين بالموسم الذي في وجوههم وهذا مؤمن وهذا كافر، ثم بعد ذلك تطلع الشمس من مغربها ومن شدة حرها يموت من بقي من الناس من إنس وجان ويغلق باب التوبة عن الناس.

بعد صمت قبوري تكلم أحدهم بصوت فيه حزن وخوف شديدين:

أو تصيب الجن أيضا؟

رد الطالب الصغير: بالطبع، فهذا مكتوب في الكتاب.

- وهل من سبيل إلى التوبة؟

- باب التوبة يوشك أن ينغلق، فتوبوا إلى الله وطهروا قلوبكم من كل دنس، ومن كان في عنقه دين فليرده، ومن اقترف ذنبا في حق أخيه فليطلب منه المغفرة والصفح.

صمت الجميع على مضض، وقلوبهم تكاد تفارق صدورهم، قبل أن يمتد الوباء إلى البقية الباقية من أهل القرية، وبقي الوباء يتقدم

ويلتهم المزيد من الأرواح. وبالمقابل استمر حفّارو القبور في عملهم المتواصل واستمر من بقي من «الطلبة» في قراءة البردة، يعودون إلى بدئها فور الانتهاء منها، وكأن قصيدة الإمام البوصيري تلك أضحت دائرية وبدون نهاية:

«الحمد لله منشي الخلق من العدم
ثم الصلاة على المختار في القدم
أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق من الظلماء من أضم».

وفي حالة اليأس والقنوط التي عمت القرية، تزايد عدد ضحايا الوباء بشكل يدعو إلى الموت رعبا قبل الإصابة به فعلا، والأنعام التي أهملها أهلها بدأت تلقى مصير الناس الهالكين، والقرية في حداد متواصل مع تناقص عدد ساكنيها بشكل مستمر، وبينما القرية مستسلمة للمصير المحتوم وهي تعد ضحايا الوباء الذين يموتون بطريقة تكاد تكون واحدة، مع الأعراض نفسها والآلام نفسها، وجد بعضهم ذات صباح جثة أحد الأشخاص ممزقة، وعليها أثر اعتداء كبير، فمن هو الضحية يا ترى؟..

- هو إبراهيم.

لقد كان أمر الموت عاديا، لكن ميتة إبراهيم كانت مختلفة تماما إلى درجة تدعو إلى السؤال: من قتله يا ترى بهذه الطريقة البشعة؟

إبراهيم كما عرفه أهل القرية من أكثر الناس طيبة وجنوحا إلى السلم، يكاد لا يخاصم أحدا إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطرارا، فهل

راح ضحيـة دفاع عن الشـرف؟، أم أن غريبا تسـلل ليلا فـي غفلة من عيون القرية ونفّذ تلك الجريمة البشعة لأمر لا يعلمه إلا الله؟

ظلت الأسـئلة تتهاطل على الرؤوس المنهكـة، والكل ينتظر من سـيأتي بالقول الفصل ويفك خيوط ذلـك اللغز المحيّر، وسـرعان ما جاء الرد من أقرب أقربائه.

كانت زوجته الشـابة تندب حظها وتلطم خدهـا، وتؤكد للجميع بكلام يتخلله بكاء، وقد اقتحمت مجلس الرجال على غير عادة نسـاء القرية:

لقد راح ضحية الفال.

وفي وقت كان يتوقع فيه السـامعون حلا لذلـك اللغز، زاد كلام الأرملة في حيرتهم، فما الذي تقصده بكلمة فال؟

لم تنتظر المرأة سـؤال أحدهم، لتواصل حديثها المتقطع، قائلة: «كان رحمـه الله قلقا للغايـة على مصير أهل القرية، يبيـت الليل باكيا على الذيـن رحلوا، مرعوبا مـن المصير الذي ينتظـر البقية، ظل يفكر ويفكر إلى أن اقتنع بطريقة الفال يسـتعملها حتى ينكشـف له مسـتقبل القرية ومآلها، وكيف ستنتهي هذه المحنة التي قد تأتي على الجميع.. لقد كنت في السابق أخفي من كل فاكهة شيئا من أولى ثمارها نضجا، وكنت احتفظ بذلك لنفسي، وذات يوم سألني السؤال المحير:

أين تخبئين تلك الأشياء؟

عندمـا اسـتفهمت عـن مغـزى سـؤاله أكد لي بـأن الأمـر مجرد فضول.

تصمت قليلا متأثرة بالبكاء ثم تضيف:

لقد أخطأت عندما أخبرته عن المكان الذي كنت أخفي فيه تلك

الصرّة، لقد أثّرت عليه المحنة بشكل كبير إلى درجة أنه كان يبكي مثل النساء، وأحيانا كان يقضي الليل دون أن يغمض له جفن، يقرأ ما يحفظ من القرآن وكأن التعب لا يتسلل إلى مفاصله مطلقا.

قبيل الليلة الملعونة استحم الرجل وأكثر من الصلاة بشكل ملفت للانتباه، وحينما كلمته رفض الرد عليّ وكأنه لم يسمعني، فقد كان منتصبا كالصنم الذي لا يسمع ولا يرى ولا يتحرك، وساعتها لم أهتم بالأمر كثيرا وكنت لا مبالية مع المحن المتوالية التي أصابت القرية وأهلها، لكني لم أكن أعلم بأني سأفقده بعد قليل وإلى الأبد.

ليلتها بكى على مصير القرية الأسود، كالمرأة الثكلى، وكان يتكلم كثيرا في أمور متنوعة، ثم أوصاني خيرا بنفسي وبأولادي وهدّأ من روعي، كنت قمة في الإرهاق إلى درجة الانهيار وقد نمت بسرعة تحت تأثير التعب وحديثه المتشعب.

وأنا نائمة نهضت مفزوعة على وقع صرخة مدوية زلزلت لها الأرض من تحتي، وهرعت أهرول باحثة عن زوجي لكي يفسر لي ذلك الأمر، لكني لم أجده في مكانه ولا قريبا منه.. أخذت أجري في كل الاتجاهات والشلل يكبل مفاصلي، وبعد سقوط ونهوض وهلع كبير تلمست الجثة عند مجرى المياه القذرة وحولها بقايا نار مشتعلة، ومن شدة الصدمة كنت مثل البلهاء التي غاب عنها الحزن والخوف وحتى الكلام، وقد قضيت الليلة كما لو كنت فاقدة للوعي لا أعرف ماذا أفعل، وسرعان ما استعدت بعض الوعي وعد بصعوبة إلى البيت لأخبر الأهل بالأمر، لكني سرعان ما شعرت بالانهيار التام ولم أستفق إلا في هذا الوقت وقد جئت بسرعة إلى المكان المشؤوم فور استعادتي تفاصيل ما حدث الليلة الماضية.

وبعـد صمت حيّـر الجميـع ختمـت لأرملـة قائلة: «لقـد دفعت الحيرة بالمسكين إلى المجازفة، فلم يجد من وسيلة يطمئن بها خاطره سوى طريقة «الفال» التي أودت بحياته».

وهنا سأل أحد الحضور:

وهل سمعت.. هل سمعت شيئا من الأصوات؟

بدت الأرملة مرتبكة، لا تقوى على الـكلام، وقد غلبتها الدموع فسـقطت أرضا، وبعد كثير من الجلد والمقاومة بـدأت تعصر ذاكرتها لعلها تستعيد شـيئا، لكنها حين تكلمت قالت كلاما غريبا.. لقد بدأت تهذي:

الخيول تصهل وسط عاصفة هوجاء.. اجتاحت الرياح المكان.. سقطت الرؤوس أرضا.. تطايرت أشلاء الرجال..

كان زوجـي وسـط العاصفـة.. النـار تأججـت.. أحرقـت كل الأشـياء.. بقايا الفال ذهبت مـع الريح.. صاح زوجي: مـا المصير؟.. اختنقت الأنفاس.. سـرقت بيادر التبن في وضـح النهار.. الدجاجات تنقر عينـي.. أين البيضـة التي سـرقتها الخالة قرميـة؟.. البيضة بجمل يوم القيامة.. ابعدوا عني هؤلاء الغرباء.. يا للعار.. شـيخ يتصابى.. أنا لست ساحرة.. والله لا أعرف سرا شيئا عن سر الأشياء.. النية وحدها تخلصني في النهاية أيتها الساحرات..

مـا هـذه الرائحة الكريهـة التي تملأ المـكان؟.. الذبـاب الأزرق تفرعـن.. أصبـح الـرأس منتفخـا.. الذبـاب صـار بحجـم إنسـان.. مخلوقـات غريبة تـأكل الناس رجالا ونسـاء.. نسـاء الحـي ذهبن مع الريـح.. السـنابل اختفـت من البيـدر.. زوجة خالـي حاقـدة.. قاتلة.. وضعت السـم لخالي في اللبن.. شرب القطران مع كسرة الخبز.. أين

ثيابـي؟.. هـل أنا عاريـة؟.. زوجي أخذتـه العاصفة.. النـار أكلت كل شيء.. الناس اختفوا نهائيا عن الأرض.. أنا وحيدة.. أين سأذهب؟.. رحمتك يا ربي.. قلبي نقي.. لست من المصلين.. لا أعرف طقوس.. لا أعـرف الصلاة.. لم أجد مـن يعلمني إياها.. خجلـت من زوجي.. ادفنونـي بعيدا عن هذه القـاذورات.. الجثث تعفنـت.. لم أعد احتمل هذا الخراب.. احملوني بعيدا.. أنا ولية ومسكينة..

عند ذلك الحد بدأ لسان المرأة يثقل ويثقل إلى أن أصبح كلامها غير مسموع بالمرة، ثم هدأت شفتاها وغابت الحركة نهائيا عن جسدها بالكامل.. سـاد صمت الأموات المجلس وفقد كل واحد القدرة على الحديـث أو حتى البـكاء، واعتقد الجميع جازميـن أن الهلاك هو مآل أهل القرية المحتوم، وبعد صمت طويل عاد الكلام همسا:

ما قاتلته المرأة ليس هذيانا.

– لقد نطقت الملائكة على لسانها.

– بل إن ما تفوهت به هو ما جاء في الفال الذي سمعته في تلك الليلة المشهودة.

عندمـا تأكـدت الجماعة من مـوت الأرملة، أمر الرجـال عجوزا بـأن تغسـلها استـعدادا لدفنهـا مع الجثـث الجاهـزة للدفـن، حملوها إلـى المقبـرة وكان الموكب محدودا للغايـة، فكل النـاس تقريبا كانوا مشـغولين بهمومهم الخاصـة ومتخوفين من أن يكونـوا ضمن ضحايا الوبـاء المقبلين، فالضحايـا في تزايد مخيف وأخبـار الموت أصبحت لا تثير أحدا من كثرتها.

عندما وصل الموت إلـى المقبرة، وجـدوا المقرئين في حلقتهم التي أصبحت دائمة يرددون آيات القرآن وبردة الإمام البوصيري:

«أطعت غي الصبا في الحالتين وما
حصلت إلا على الآثام والندم
فيا خسارة نفسي في تجارتها
لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم
ومن بغضي آجلا منه بعاجله
بين له الغبن في بيع وفي سلم».

وبقي المقرئون يرددون بردة الإمام البوصيري ويختمون القرآن بالتناوب ودون انقطاع في محاولة بدأت تظهر يائسة لطرد الشبح الذي يهدد قرية عين المعقال بالهلاك النهائي، لكن الوباء ظل ينتشر وينتقل من جسد منهك إلى آخر، ولم يسلم منه المقرئون وقد أصبح عددهم في تقلص مريع، وما إن يقضي على أحدهم حتى تحمل جثته من المقبرة إلى البيت لتغسل وتعاد من جديد إلى المقبرة لتوارى التراب، وبات الانقراض يهدد المقرئين وقد تقلص قطر الحلقة شيئا فشيئا.

عم الوباء كل محيط القرية، وباتت الجثث مرمية في كل مكان، وبدأ آخر الأحياء يدفنون موتاهم دون غسل جثثهم ولا حتى تكفينها والصلاة عليها مثلما تقتضيه تعاليم الدين، وجثث الموتى أصبحت تحمل بالجملة فوق عربات خشبية يجرها حمار منهك قد يسقط في أية لحظة ميتا، وقد تخلى حفارو القبور عن مهمتهم واستسلموا لليأس والانزواء في أماكن مختلفة منتظرين الهلاك المحتوم، بعد أن فرقت العدوى شملهم، لكن البعض تطوع ليحفر خندقا كبيرا ترمى فيه الجثث بالجملة.

انتشرت رائحة الموتى في كل مكان، ولم يعد أحد من الباقين

يهتم بمصير الآخرين، والكل ينتظر دوره والدهشـة تملأ قلبه، لم يعد البـكاء يجدي نفعا، وقـد بردت قلوب الجميع، بعـد تيقنهم بأن مصير أهل قرية عين المعقال هو الانقراض الأكيد.

هـدأت القراءة ثم غابت تماما عن المقبرة وحفظة القرآن والبردة بدؤوا في الانقراض، وعند ذلك الحد أمر كبير المقرئين المتبقين على قيد الحياة، بأن يعود كل واحد إلى بيته ويغتسـل غسل الموتى، وأفتى بأن يصلـي كل واحد منهم على نفسـه صلاة الجنـازة، وقبل الافتراق أقيمـت صـلاة جماعيـة علـى أرواح الموتـى السـابقين واللاحقيـن، ليستقبل كل واحد مصيره المحتوم في طمأنينة تامة.

في تلك الساعة مات ما تبقى من أمل في نفوس المؤمنين.

- أيـن بركة سـيدي الـزواوي؟.. ولمـاذا يتخلى عـن قريته بهذه السهولة؟

تسـاءل الناس. بكى الجميع بـكاء الثكالى، وقـد اقتنع كل منهم أن الجرم الذي ارتكبه أهل قريتهم من النوع الذي لا يغتفر، وتسـتحق القريـة جراءه الهلاك الشـامل، وسـرعان ما طبّق من سـمع من الناس وصية الشيخ، فاغتسلوا ولبسوا أجمل ملابسهم، وبكوا بمرارة، وصلى الجميـع على الجميع وافترقوا على قناعـة أن ذلك هو الفراق الأخير، ثـم جلس كل واحد ممـن تبقى على قيد الحياة عنـد بيته مع من تبقى من عياله وقد شـل الذهـول حركته وانتظـر النهاية بقلب يـكاد يفارق الجسد قبل أن يقضي عليه الوباء.

بوسعدية

انتابه إحساس قوي مفاده أنه أتعس مخلوق في الوجود، وقد عرف بين أقرانه بإهمال كبير لشكله ومظهره، وكثيرا ما جلب له شعره الطويل والمبعثر متاعب مع المعلمين والأساتذة طيلة سنوات دراسته التي أصبحت بلا روح ولا معنى.

مشى بخطوات متثاقلة صوب البيت، وعندما وصل رمى بالمحفظة دون اهتمام كأنه يرمي بحمل أثقله، وعندما سألته أمه عن سر همه الذي زاد عن الحد انفجر في وجهها باكيا:

لماذا أسميتموني الزواوي؟.. هل نفذت بقية الأسماء؟

- إنه اسم يحمل معاني كبيرة يا بني.. بل هو أجمل الأسماء.

- أجمل الأسماء؟.. لا تدفعيني إلى تمزيق ثيابي وجلدي.. إنه اسم قديم انتهت مدة صلاحيته منذ زمن طويل مثلما يجمع على ذلك كل الزملاء، بل وحتى أحد الأساتذة الذي سألني عن سره ولم أستطع التكلم معه في الموضوع.. لقد كرهت اسمي هذا وكرهت نفسي ولم تعد لي رغبة في أي شيء

- لا تقل هذا يا بني.. ألا تعلم أن اسمك مطابق لاسم سيدي الزواوي؟

- وما ذنبي أنا إن كان هذا الاسم يتطابق مع اسم سيدك الزواوي؟

- هل جننت؟.. لماذا تتكلم عن سيدي الزواوي بهذه الوقاحة..

ألا تعلم أنه باستطاعته إيذاءك؟

- إيذائي؟!، ما هذه الخرافات التي أسـمعك منك يا أمي؟، هذا أمر لا أسـاس له من الصحة، فقد تعلمنا أن الله وحده القادر على كل شيء، أما مثل هؤلاء الأموات فلو كان باستطاعتهم فعل ذلك لضمنوا الحياة لأنفسهم أولا، لكنهم أموات ولا يمكنهم فعل أي شيء.

تبّا لمعلمي آخر الزمان، إنهم حمقى لا يعرفون شيئا.. أنا جربت الدنيا كثيـرا وأعرف ما لا يعرفه المعلمون، وعودة إلى اسـمك فإن له حكاية

- حكاية!، ما هي؟

- كنـت في بدايـة حياتـي الزوجية مغبونـة، وكان والـدك يا بني يشـمئز مني لأنه مات لي من الذكـور اثنان قبل ولادتـك، لكني كنت متأكـدة من أن في الأمر سـر، وبقيت أجيب عند السـؤال أن ذلك من مشـيئة اللـه، لكن فـي أعماق نفسـي كنت فـي غايـة القلـق والحيرة، وهاجـس الطلاق بـل وحتى هاجس الضرة سـيطرا علـى تفكيري كل تلك السنين حتى تحولت معها حياتي إلى جحيم لا يطاق

وفي يـوم وبينما كنـت نائمة جاءنـي في الأحلام شـيخ بملابس ناصعـة البياض ورائحـة الجنـة تنبعث من جسـده، أما نظرتـه فكانت قويـة ومركـزة إلـى درجـة أنـه أربكتنـي، وبعـد مقاومـة تغلبـت على تـرددي وخجلي وسـألته ببـراءة: من أنـت؟، فصرخ فـي وجهي قائلا بصوت مجلجل: «أنا سـيدك الزواوي.. أنا اللـي يجرح ويداوي.. ألا تعرفينني؟».

أصبـت سـاعتها بخجل شـديد، وقبـل أن أجـد كلامـا أجيبه به، أضـاف قائـلا: «أعرف غبنـك يـا بنيتي، فـلا تخافـي شـيئا.. أنت في

حمايتـي»، ثم قال: «بوسـعدية.. بوسـعدية...» وكررها ثـلاث مرات، وما إن هممت باستفسـاره عن الكلمة الأخيرة حتى قطع صوت مؤذن صـلاة الفجـر حلمـي ذاك، فاسـتغفرت ربي ونهضـت من النـوم وأنا مرتبكـة للغاية، وخائفة جدا من عواقب ذلك الحلم الذي رأيته والذي لا أعرف له تفسيرا.

عندما أخـذ النهار في الطلوع، انخرطت في شـغل البيت اليومي ونسـيت أمـر الحلم تمامـا، لكـن المفاجـأة أذهلتنـي بعد ذلـك حتى أقعدتنـي أرضـا، فقد سـمعت فجـأة أصوات الأطفـال وهـم يهتفون: بوسـعدية.. بوسـعدية، وكأن هتافهـم ذاك كان اسـتمرارا للحلم الذي رأيته البارحة.

وما إن سـمعت تلـك الهتافـات حتى اسـتحضرت ذلـك الحلم بكل تفاصيله، وقد نسـيته قبل ذلك وأنا منهمكة في شغل البيت. لكن الدهشـة كانت من القوة إلى درجة أن أقعدتني أرضا، وبينما أنا كذلك إذا بجدتـك تقتحم المكان وتمسـكني من يدي، ثـم تأمرني بالخروج والرقـص على أنغام «زرنة» بوسـعدية، ذلك العـازف الجوال صاحب الـزي الغريب، ولما لـم اسـتوعب الأمر سـألتها والدهشـة تملؤني: ما هذا الكلام؟.. هل سـأخرج وسـط الرجال، وأرقص مـع ذلك الرجل الأسـود الغريـب؟، هـل تريديـن جعلـي أضحوكـة بيـن النـاس وأن يطلقنـي ابنك؟، لكنها تمسـكت بطلبهـا وأقنعتني بأن الأمـر لا يخرج عن الأعراف والتقاليـد، وهي تتكلم عن بوسـعدية وفرقته التي تعزف ألحانا غريبة، التي تسمى «الديوان»، وعلاقتهم بأولياء الله الصالحين، وما إن فعلت ذلك حتى استجمعت شجاعتي وخرجت من البيت وأنا بثياب الشـغل، وكنت أمشـي وأكاد أسقط من شـدة الارتباك الذي لم

استطع التغلب عليه تماما، وعندما وجدت نفسي وسط حلقة العازفين والناس المتجمعين رقصت على أنغام الزرنة بخجل يكاد يقتلني، لكن بإصرار وأنا أحاول التركيز على هدفي الذي أنساني في النهاية الجمع وكلامه.

لقد صدق وعد سيدي الزواوي، فحملت بك بعد مدة قصيرة من ذلك، والحق؛ فقد نصحني البعض عند ولادتك بأن أسميك «بوسعدية» على اسم ذلك البهلول المسكين الذي جعله الله سببا لمجيئك لهذه الدنيا في لحظة يأسي، لكني بعد تردد وتريث أسميتك «الزواوي» واسم الولي الصالح الذي كانت له ومازلت أفضال كثيرة عليّ كما تعرف.

- أعيدي عليّ ما سمعته منك.. بوسعدية؟، هل كان ممكنا أن يكون اسمي بوسعدية؟، فو الله لو كان اسمي كذلك لانتحرت وأنا في طفولتي الأولى وارتحت من تلك المشكلة اللعينة، ثم لماذا أنا بالتحديد مخير بين اسمين قبيحين.. الزواوي وبوسعدية؟

- ما هذا الكلام يا وليدي؟، لا تقل هذا عن اسمك فهو نفسه اسم سيدي الزواوي الذي يحرس قرية عين المعقال منذ أمد طويل، ثم إنه نفسه اسم الزواوي جدك الأول الذي نجّاه اسمه من المرض الذي قضى على القرية منذ سنين بعيدة وكان سببا في حمايته وذريته التي تكاثرت مع السنين وعادت لتملأ القرية من بعد خرابها.

- كيف حصل ذلك يا أمي؟، لم أسمع بهذه الحكاية قبل اليوم، أريدك أن تسرديها عليّ منذ البداية.

- جدك الزواوي يا بني هو زوج الحاجة الياقوت الجدة الأولى للعائلة التي تعرف بـ«أولاد الياقوت» نسبة إلى تلك المرأة، ويحكي

الأولـون مـن النـاس أن الولـي الصالح سـيدي الـزواوي هـو من أمر بتزويـج جـدك مـن الحاجـة الياقوت، وقـد أمر بذلـك من قبـره رغم معارضة الجميع للأمر منذ البداية.

- وكيف يأمر بشـيء وهو في قبـره؟.. هل كان يسـتطيع التكلم وهو ميت؟

- لا تنسـى يـا وليـدي أنه أحـد أولياء اللـه الصالحيـن، وله من البركات ما يعجز عن ذكرها اللسان، وتلك من الصفات التي وهبها له الله، فباسـتطاعته وهو في قبره القيام بأشد الأفعال صعوبة على البشر العاديين، إنه باختصار حارس هذه القرية الأمين منذ القدم.

- لـم تخبرينـي يا أمـي بعد عن المـرض الـذي كاد يقضي على القرية.

- كيـف لـم أخبـرك بالأمـر قبـل الآن؟، فهـي حكايـة معروفـة ومتداولة كثيرا بين الناس.. كيف أبدأها يا ترى؟.. لقد كان أناس قبلنا يسـكنون قريتنا هذه منذ سـنين بعيدة، وقد اجتمعوا على بركة سـيدي الزواوي في منطقة واحدة واختلطوا مع بعضهم البعض في الأنسـاب رغـم أنهم كانوا أعـداء في بداية الأمر وعاشـوا في خيـر وهناء طويلا إلى أن أتاهم الوباء من حيث لا يعلمون.

كانت المنطقة مكتظة بالسـكان، وعندما انتشـر الوباء اللعين أتى على البشـر والمواشـي وحتى الدجاج، ويقال أن القيامة كانت ستقوم ساعتها، فقد كانت المعاصي منتشرة بقوة، ولم تنزل الأمطار على هذه الأرض لمدة سـبع سـنوات كاملة، فجفت الينابيع ولـم يجد الناس ما يشـربون ولا ما يـوردون به بهائمهـم ودواجنهم، ومـن غرائب ما كان يحصل في تلك الأيام السوداء أن السـماء كانت تتلبد بالسحب غريبة

الألوان، هي أقرب إلى الحمرة منها إلى لون آخر للسحب المعروفة، ثم تأتي العواصف الهوجاء التي تقتلع الأشجار وتدمّر البيوت وتقتل الكثير من البشر والأنعام.

في ذلك الوقت أدرك عقلاء القوم أن ذنوبهم بالمرتكبة فاتت كل الذنوب وبلغت الحد الذي لا يغتفر، فسارع الخيّرون إلى التوبة النصوح، لكن فعلهم ذاك لم يغيّر في المصيبة شيئا، فقد جاء كل ذلك بعد فوات الأوان، وقد يتيقن الكل من ذلك في نهاية الأمر، وبدأ عدد ضحايا كل المصيبة يزداد يوما بعد يوم، ومن شدة وقوع الضحايا، أصبح الكثير من الناس يموتون خوفا وقلقا قبل أن تصيبهم أعراض ذلك الوباء اللعين.

ويروي الناس جيلا بعد جيل أن سيدي الزواوي الولي الذي يحرس قرية «عين المعقال» نهض من قبره، والوباء قتل العشرات من الناس في كل حين، وكان يمشي بين الجثث والأحياء وهو ملفوف بالإزار الأخضر، ويذكّر من بقي من الناس على قيد الحياة بسيئاتهم المرتكبة التي لا تغتفر، والتي أوقعت القرية في ذلك المصير الأسود. ووسط ذلك الجو من الرهبة والذهول سارع أحياء القرية إلى التجمع والالتفاف حول الولي سيدي الزواوي الناهض من قبره في ذلك الحين، وأخذوا يبكون عند قدميه، ويقسمون بالله العلي العظيم أن قلوبهم صافية لا خبث فيها، وطلبوا أمامه المغفرة من رب العالمين، وكانوا يبكون مثل الأطفال اليتامى، ويذكر من روى تلك الواقعة الفريدة أن سيدي الزواوي لم يول توسلاتهم وبكاءهم أي اعتبار، وكان صامتا بشكل حيرهم وأرعبهم أكثر على مصير البلاد والعباد، لكنه نظر فيهم مليا بعد ذلك ثم بصق على جمعهم، وجر إزاره

الأخضر الـذي كان يلفه، دون أن يلتفت وراءه، وسـار إلى حيث كان ينام نومته الأبدية وعاد إلى سـكونه مثلما كان الأمر قبل نهوضه وكأنه لم ينهض من قبره أبدا.

وما إن نام الولي الصالح سيدي الزواوي من جديد في قبره حتى أخذ عدد الضحايا في التزايد بشـكل مرعب حقـا، ولم يتمكن حفارو القبور مـن دفن كل الجثث فـي الوقت اللازم، بـل ازداد عدد الموتى وأصبح أضعاف عدد الحافرين، فاسـتولى اليأس على القلوب وبقيت الجثث مرمية في كل مكان دون أن تجد من يدفنها.

كانت الجثث في كل وضعية، في البيوت والخلاء، وفي المسجد وفـي السـوق وعنـد القبـور، مرميـة أمـام الـكلاب الضالـة والغربـان والجرذان تأكل من عفنهـا، واختلطت جثث الناس الهالكين مع جثث الحيوانـات والجـرذان والطيـور الميتـة، وأصبحـت الروائـح الكريهة تصيب من يتلقاها بالإغماء قبل أن يلقى حتفه مثل الذين سبقوه، وكان جدك الأول الزواوي من النـاس القليلين الذين لم يقض عليهم الوباء إلى ذلك الحين، وكان يعيش أيام الموت والجثث بقلب جريح.

وفي صباح يوم لم يكن كسابقيه، نهض جدك الزواوي، وقد ترك زوجته الياقـوت نائمة، وكانـت المفاجأة في انتظاره.. وجـد أن الوباء الغريب قضـى على كل أفـراد قرية عيـن المعقال، لقـد صدقت نبوءة أحد العارفين الذي لقيه يوما في السوق وكان لا يعرفه وهو يراه للمرة الأولى، فقد اختاره من بين الجموع وناداه باسمه. ولما كان بين يديه، مسح على رأسه، ثم قرأ عليه شيئا مقدسا يحفظه، وقال له بعد القراءة: «أنت الغراب الذي يواري سـوءة أخيه، إن الساعة قد حلت على أهل قريتـك، فاذهـب وادفنهم، فأنـت الذي سـتبعث الحياة مـن جديد في

قريتـك، والخير باق في ذرية ذريتك»، ثم قال له «إن لاسـمك الفضل عليك، فيمـا أنت فيـه، وفيما أنت مقـدم عليه»، ولم يفاجـئ أحد من الشـهود بتلك الحظوة الخاصـة التي نالها جـدك الأول الزواوي، وقد علموا أن اسـمه المطابق لاسـم الولي الصالح سـيدي الزواوي حامي قرية عين المعقال، والذي تتشرف بالانتماء إلي سلالته، وتتشرف أكثر بحمل اسمه المقدس، الذي حمله قبلك أناس صالحون كان لهم شأن عظيم في حياتهم، وذكرهم الناس بخير بعد موتهم.

كان جدّك الزواوي يسـتعيد تلك الحادثة الغريبـة التي وقعت له في السوق، وهو يتجول بين البيوت بعد أن نهض باكرا كعادته ليصلي الفجر في بيته ثم يخرج يتفقد الأهل والقرية، وقد وجد الجثث منتشرة فـي كل مكان، فلم يجد أحدا من غير أهل بيته على قيد الحياة.. مات الرضيـع والشـيخ العاجـز، والثكلى واليتيمـة والعجـوز والقاصر. بعد توالي الشـرور مـن كل جهة، جوعا ورعبـا ووباء وحسـرة، عندها بدأ يتأكد بأن الجميع قد هلك، وفي جـو تملؤه رائحة الموت الكريهة لم يفقد الأمل نهائيـا وراح يطوف بين البيوت لعله يجد أحدهم على قيد الحياة، أو يسـمع أنينا، لكنه لم يظفر بذلك وعـاد إلى البيت والدموع تملأ عينيه دون أن يستطيع البكاء.

جلـس طويلا وهو يمسـك رأسـه بيديـه، ثم اقترب شـيئا فشـيئا مـن زوجته الياقوت وعندها انفجر وهو يضع رأسـه فـي حجرها باكيا كالطفل الصغير، حتى انتفخت عيناه من شدة البكاء وكاد رأسه ينفجر ألما. ثم أخذ يفكر فيما سيفعل أمام تلك الواقعة التي لم يكن ينتظرها، وسـرعان ما تكلمت الياقوت متغلبة على بكائها بشـجاعة لتشـير عليه بأن يقوم بالواجب تجاه الناس الهلكى.

خرج الزواوي وهو في حالة بين الحياة والموت، يستجمع قوته المنهارة، وانهمك في حفر مجموعة من القبور الجماعية، يستر فيها جثث الهلكى الذين لا يعلم عددهم إلا الله، ومن البركات التي تمتع بها جدّك الزواوي وهو في تلك الحالة، أن الله أعطاه قوة خارقة تمكن من خلالها من القيام بذلك العمل الجبار على أكمل الوجوه، وقيل أن أجساما نورانية كانت تساعده في حفر تلك القبور الكبيرة، وتمكن في النهاية من دفن كل الجثث التي كانت مرمية في كل مكان.

وعندما عاد الزواوي إلى بيته بعد أن دفن آخر الجثث، بقي هناك طويلا، وراح يتأمل الجو وهو يتغير، فقد عادت الأمطار إلى السقوط أغزر من أي وقت سابق، فعادت الخضرة من الجديد إلى المكان وقد تحول في سنين الجفاف تلك إلى صحراء قاحلة.

دبت الحياة من جديد وبعثت الروح في الأنعام، وعادت إلى الحركة والتكاثر، وكأن شيئا لم يحدث، أو أن الأمر كان مجرد حلم مزعج عابر، لولا أن الهلكى لم يعودوا إلى الحياة، وبقي الزواوي وأسرته الصغيرة يعيشون في عزلة في قرية عين المعقال التي اختصرت بيوتها في بيته، وكاد يقضي حياته في تلك العزلة لولا أن الزمن وسنته فرضا عليه الاختلاط مجددا بأناس غريبين عنه، فعندما بلغ أولاد الزواوي الذين كبروا بسرعة، لم يجد أزواجا لهم من الأقارب، فلم يكن لهم أقارب، إذ قضى عليهم الوباء الواحد بعد الآخر، فاضطر في كل مرة إلى اللجوء إلى القرى البعيدة خاطبا، ثم زوّج بناته رجالا غرباء عن القرية.

ولم تمر إلا سنوات قليلة، حتى تكاثر سكان قرية عين المعقال من ذرية الزواوي والياقوت، فعادت الحياة من جديد بكل ما فيها، وقد

ودعت الأحزان وكان السكان قبل ذلك بسنين على وشك الانقراض.

تصمت أم الزواوي قليلا، وقبل أن ينطق ولدها الذي كان غارقا في الحكاية تعود إلى الكلام من جديد لتضيف: «كل تلك الدلائل يا وليدي توحي بأنه سيكون لك شأن عظيم، وبأنك سترفع رأس قرية عين المعقال يا الزواوي عاليا بين القرى.. إن لظهور سيدي الزواوي في الحلم وكلامه عن بوسعدية، ومجيء بوسعدية في اليوم نفسه الذي وعد به، ثم حملي لك الذي كان بسرعة مدهشة، وبسهولة دون أي تعب أو مرض، والبركات التي صاحبت ولادتك، كلها أمور تبشرني بالخير»، ثم ختمت كلامها والولد لا ينطق بكلمة ولا يكاد يتحرك: «لا تحزن يا الزواوي، فأنت محظوظ، رغم أن الناس لا يقدّرون هذا الاسم العظيم الذي تحمله، وهذا مما يؤسف له».

فجأة شـعر باختلال في جسده، وفقد السـيطرة على نفسه، وبعد مقاومة لم يتمالك الزواوي نفسه فتقيأ شيئا غريبا، وانخرط في حديث مبهم مع نفسـه، وعندما رأى منه بعض زملائـه ذلك التصرف اعتقدوا بأنـه يمزح معهـم، عابثا مثلما يفعـل أحيانا، لكن حاله تلك اسـتمرت فبـدوا أكثـر جديـة معـه، وهـم يتحلقـون حولـه ويحاولون شـد يده، وعندها سـمعوه يكلمهم أو يكلم نفسـه بحديث لم يفهموا منه شـيئا، وذلك الحال لم يروه عليه من قبل.

ازدادت حالة الزواوي سـوءً، فالعرق يتصبب مـن جبينه بغزارة، والقيء يملأ ملابسـه والأرض من حوله، والدم يسيل من أنفه ويلطخ ملابسـه ووجهه جـراء سـقوطه المفاجـئ، فحسـبه بعضهم ميتـا لولا هلوساته التي استمرت.

– ابعدوا هـذه الكراسـي المفترسـة.. المنضدة أكلـت التفاحة.. أسنان الليل سقطت في كأس من الشاي.. اشرب.. اشرب، كل يا قليل النعمة.. نمت في وضح الحذاء.. أنا.. لماذا أنا دون سـواي.. اسـمي يدعو إلى الغثيان.. لا، لا.. اسمي مقدس.. لا تقل هذا.. أنا من اقتفى أثر نعامة الجبل.. اسكت قبل أن يأتي شيخ الكانون.. احترم القانون.. قانون المرور فـي فوضى.. النار تـأكل بعضها.. لا أريـد الذهاب إلى النار.. لا يا غـدّار.. الجنة.. هي صفراء..الجنة تحت أقدام الأمهات.. أمي.. لا تضربيني فلسـت والله من أكل السـكر.. لست أدري.. لماذا

أنا دوما من يضرب بالحذاء؟.. الرحمة أيها الناس.. لا تنظر إليّ شزرا هكذا...

امتطيت ظهر القمر.. رسم الأطفال فيلا بالطبشور.. خرطومه أكبر مما كان يجب.. نهض الجمل المجنون وأكل المدرسة.. المعلمون أصبحوا في كرشه.. أين الطريق أيها الناس؟..

لست مسؤولا عما يحصل الآن.. أريد قليلا من النور.. نظفوا فوهة الشمس.. أشعر بحريق في جسدي.. بيتي بعيد.. في قمة الجبل.. النسر سيأكلني.. لا تخف يا صديقي.. سوف أقهر هذا الزمهرير.. لماذا أنا أتكلم؟.. أنا صامت كما ترون.. ولمن هذا الصراخ الذي أسمعه؟.. إنه الغول الذي طالما فكرت في شكله دون أن أراه.. إنه قادم.. سوف أعرف شكله للمرة الأولى في حياتي.. أنا لا أحب الكسكسي، خاصة إذا كان بالحليب المغلى.. حليب الأم لا مثيل له.. هكذا قالوا في التلفزيون.. رأيت التلفزيون يمشي.. هل حقا هو صديق الغول؟.. لا أصدّق.

شجرة الليل.. بستان في سبخة.. سوف يزهر الملح.. لا تأكل ملحا خال من مادة اليود.. رأسي يأكله الدود.. فقدت رأسي.. أصبح فريسة للغول.. أنا أحب أكل الفول.. خاصة مع الكسكسي.. لا تتركوني وحدي.. ما هذه الحركة؟.. في الحركة بركة.. هل حقا هو الزلزال؟.. هذه هي البداية، ومازال مازال.

ما الذي سأفعله عندما يجتاحني الطوفان؟.. الماء يغمر جثتي.. لماذا تنظرون إليّ هكذا؟.. هل أنتم عميان؟.. الليل اختلط مع بياض النهار.. أصبح لون اليوم مختلفا تماما.. أنا أحب الألوان الصارخة.. كل الكسرة اليابسة ولا تتشرط كثيرا.. أعرف أن الكثير من الناس

يعجزون حتـى على توفير اللقمة اليابسـة.. المجاعة أكلت الناس.. ما هـذه الألفاظ المكـررة حد التقـزز؟.. ما هـذه الصورة التـي أراها في السـماء؟.. هل هي صورة مجلة مصورة أم هو ملاك سـماوي طاهر؟ الأضواء باهرة.. أشعر بسحر يشدني إليها.

ابعـدوا عني صورة الجثـة المتعفنة.. أنا وحـدي القادر على قهر الأشـرار.. مخلوقات على شـكل بشـر.. يخرجون الجثث مـن القبور ليأكلوهـا.. لا تخرجـوا جثتـي.. سـيجوها بأسـلاك شـائكة.. وضعوا عندها حارسا أمينا ليحرسها.

جثتـي مسـمومة.. إذا أكلهـا الغـول تفتتـت معدته.. هـل للغول معدة وأحشـاء؟.. ما هذا الظلام؟.. أشعلوا كل أضواء الدنيا.. دعوني وحـدي.. اتركونـي في بيتـي.. بيتـي جميل.. إنـه هناك.. مـع حبيبتي الياقوت.. الملاك النوراني.. عرسـنا حضرته الملائكـة.. بيتي مصنوع من الذهب والفضـة.. الكلاب العملاقة تحسـره مـن اللصوص.. من اقترب منه تحول إلى حجر أصم.. لا تغامروا بحياتكم أيها الأشرار..

أعيـش السـعادة المطلقة في حضـن الياقوت.. أنتـم لا تصدّقون ما أقولـه لكم.. أنتم أغبيـاء وحمقى.. من يا ترى يريد أن يسـرق مني فرحتـي؟.. أطفالنا سـيخرجون الناس من هـذا العفن الـذي هم فيه.. لا تنظـر إلي هكذا.. أعـرف ما تخفيـه عيناك.. الياقـوت تخبرني بكل شـيء.. وبيتـي لا يعرفه إنـس ولا جان.. لبنـة من ذهـب وأخرى من فضة.. لا نحتـاج إلى حلي ولا إلى جواهر.. نحن نسـكن داخل تلك الدرر، والياقوت جوهرة المجوهرات على الإطلاق.

كان الـزواوي يهذي، وكل أهله يحيطون به، وهم يبكون وكأنهم يحيطون بميت، واختلط في ذلك الطوق الرجال بالنساء في مشهد غير

مألوف، ووسـط تلك الجموع كانت أمه تبكـي وتصرخ بأعلى صوتها وتقـول: «يا ويلي، الزواوي وليدي فقد عقلـه.. أي بلاء هذا يا ربي؟، هل هو من سـحر السـاحرات الشـريرات، أم هي العين الحاسدة التي أصابتـه في الصميـم؟، فأنا أعرف أن كل نسـاء القرية تحسـدني عليه، والـزواوي وليدي هو الأجمل والأوسـم والأنشـط بيـن أقرانه، ومثال للذكاء والاجتهاد في المدرسة».

وبينمـا الأم تمجّد ابنهـا في تلك الحالة المأسـاوية، التفتت إليها الجمـوع منحرفة قليـلا عن الـزواوي الذي مـازال يتمتـم بكلامه غير مسموعة، وأخذوا الكلمة، كأنهم صوت واحد:

- لا تحزنـي يا امـرأة.. إنها حالة عابرة ولا شـك، فـكل الناس يمكـن أن يحـدث لهم ما حدث لولـدك، لكن الزواوي سـوف يخرج من محنته العابرة قريبا وسرعان ما يستعيد حالته الطبيعية.

وشـيئا فشـيئا لاحظ الحاضرون أن درجة هذيان الفتى بدأت في الخفوت، وعندها دخل في حالة استرخاء شديد، ثم فتح عينيه مبحلقا فيما حوله في دهشـة كبيرة، دون أن يسـتعيد وعيه تماما، وراحت أمه تطرح الأسئلة الملحة الممزوجة بالحسرة وهي تغالب البكاء:

ماذا حدث لك يا وليدي العزيز؟

وجد صعوبة بالغة في التكلم، وأخذ يجيبها وهو يمسـك برأسـه ويغالب الألم، ويحاول أن يجد جوابا من ذاكرته التي لم تستعد شيئا:

ماذا؟.. أين أنا؟.. عمّا تتحدثين يا أمي؟

- كـدت أموت من أجلك.. لقد كنت يا بني في حالة بين الحياة والموت.

أرادت أن تضيـف لـه قـولا آخـر، لكـن البـكاء تمكـن منهـا،

فانفجرت، وجمـوع الحاضرين يحاولون التهدئة مـن روعها، مؤكدين لها أنه مـن غير الجائـز البكاء عند رأسـه، ثم إن الزواوي في تحسـن مسـتمر، وسـوف يعود بعد قليـل إلى سـابق نشـاطه، والمطلوب فقط قليل من الصبر والانتظار.

بـدأت أم الـزواوي تهدأ وتحـاول التغلـب على دموعهـا، وأثناء الصمـت الذي سـاد المجلـس، تكلمت العجـوز خضراء وهـي توّجه ابتسامة ماكرة صوب الزواوي:

من يا ترى تكون الياقوت هذه التي كلمتنا عنها كثيرا قبل قليل؟

وبدا الزواوي أكثر حيرة وهو يحاول جمع أشـتات ذاكرته، وبعد قليل من الصمت أجاب خضراء قائلا:

أنا كلمتكم عن الياقوت؟.. الياقوت.. الياقو.. آه نعم.. تذكرت.. تذكـرت، ألا تعلمـون بأنهـا زوجتـي، لقـد تزوجتهـا منذ مدة ليسـت بالقصيرة، وأنا الآن أسكن معها هناك عند الجبل، نسكن قصرا شاهقا وسـط الضباب، لكن ذلك القصر لا يراه أحد من الناس العاديين، ولا يعثرون له على أثر حتى ولو بحثوا عنه بقية أعمارهم.

يصمـت الزواوي قليـلا، وكل الحاضريـن ينتظرون منـه المزيد، وقبـل أن يصيبهم اليأس يواصل كلامه بصعوبة: «.. لقد حضر عرسـنا الملائكـة، ففرحوا معنا ورقصوا وغنوا إلى غاية شـروق شـمس اليوم الموالـي، والياقـوت ليسـت ككل النسـاء، فمـن جسـدها ينبعث عطر الجنة، بل هي من الحور العين، لكني أعرفكم غير مصدقين، وتؤكدون في أعماقكم بأنني كاذب، وأقسم بالله.. أقسم بالله، أقسـ..».

لكنه لم يتمكن من مواصلة ما أراد قوله، وقد خفت صوته شـيئا فشيئا إلى أن سكت عند ذلك الحد، واستسلم لغفوة داهمته على حين

غفلـة، وعندها بدأ الجمـع يتفرق من حولـه، ولم يبـق إلا أهل البيت الذين غطوه بلحـاف، وتركوه للراحة،؟ ثم راحـت الأصوات تتهامس من بين المتفرقين:

الزواوي مسـحور، لا شـك في ذلك، وقد سـحرته جنية اسـمها الياقـوت، فلا وجود لمن تحمل هذا الاسـم من بنات أو نسـاء قريتنا، فمـن المؤكد بأنـه اسـم لعفريتة مـن الجن، وربمـا تكون قـد تزوجته بالفعـل، فالجنية قـادرة على فعـل أشـياء لا يمكن أن تخطـر لنا على بال.

– لكن الزواوي لم يبلغ بعد سن الزواج، فكيف لجنية أن تتزوج فتى في مثل هذا السن، فكيف تتمتع به يا ترى، وأي فائدة من الاقتران بمثل من في سنه؟

– مقاييـس الجـن تختلف عـن مقاييس الإنـس، فـي اختيار أي شـيء، فربما يكون الفتى قد أعجـب الجنية ولما لم تجد أحسـن منه فعلت به ما فعلت، من المؤكد بأنه تزوجها بالفعل، فالزواوي لم يكن يكلمنا عندما فعل، من تلقاء نفسه، بل كانت تلك الجنية مسيطرة على ذهنـه وتملـي عليه كل حـرف يتفوه بـه، وعندما يهم بقـول يريده هو، تعمل على إخراسه مثلما فعلت أمام أعيننا.

– وما العمل في مثل هذا الحال؟

– دعونـا مـن هذه الخرافـات التـي تجاوزها الزمـن، إنه مصاب بمـرض عصبي، مـا في ذلـك شـك، والمطلوب هـو الذهـاب به في أسـرع وقت ممكن إلى طبيب الأعصاب والأمراض العقلية، قال مراد الطالب الجامعي.

ولم يستقر أفراد العائلة على قرار بعينه، وقد زاد كلام المتكلمين

الأمر غموضا، وبقي الزواوي على ذلك الحال المتدهور، وكان المهم هو أن يستعيد عافيته ويعود إلى سابق نشاطه بأية طريقة كانت.

ذهبوا به فورا إلى طبيب الأعصاب، وانتهت الزيارة بحمولة من المهدئات، وصفها الطبيب واشتروها فورا من أقرب صيدلية، وعندما بدأ الزواوي في تناول تلك الأدوية، أخذ يهدأ تدريجيا إلى أن كادت تغيب عنه الحركة نهائيا وأصبح كأنه تمثال لا يتكلم إلا بصعوبة، ويكاد لا يسمع كلاما يقال له، ينهض في كل مرة بعد غيبوبة قد تطول وينام في أي مكان يمكن أن يكون فيه ساعة تغلبه عليه.

دخل مرة المرحاض فخفّت حركته، وبقي طويلا هناك، فانتظرت الأم طويلا وبدأ الشك يراودها إلى أن كادت تفقد الأمل في خروجه من هناك سالما، ففقدت توازنها، وراحت تصرخ وتصرخ إلى أن سمعها الجيران فهبوا مسرعين، لكنها بقيت تصرخ:

– وليدي لم يخرج من المرحاض منذ أن دخله قبل ساعة، فربما يكون قد مات.

ولم يجد من كان حاضرا لمعرفة الحقيقة إلا كسر الباب واقتحام المرحاض، وعندما فعلوا وجدوا الزواوي هناك ملقى وهو في غيبوبة تامة. حملوه فورا إلى فراشه في حالة صمت تام ولم يجد أحدهم ما يعلق به، لكن الحديث بدأ بعد ذلك عن جدوى تلك العقاقير الكيمياوية التي يتناولها والتي رأوا أن من شأنها التأثير عليه سلبيا إلى درجة أن يفقد عقله نهائيا ويتحول إلى أحد مجانين القرية.

وبعد تشاور طويل بين أفراد الأسرة، توصلوا إلى إجماع مفاده أن أفضل علاج للمريض لا بد وأن يكون بعيدا عن تلك الحبوب المهدئة أولا، ثم متابعة العلاج عن طريق الرقية الشرعية.

وبدأت محنة الزواوي تأخذ اتجاها آخر، مع التوقف عن تناول المهدئات، وقد استبشر الأهل خيرا في البداية عندما استجاب قليلا إلى الشيخ الراقي، فهو يرتاح لمجيئه ويستجيب له إلى درجة أن الأهل يظنون بأنه تعافى تماما، لكن حالته سرعان ما تتدهور من جديد ويعود إلى حالة الهذيان السابقة، وأحيانا يتحول هذيانه إلى حالة هستيرية غريبة، يصبح فيها عدوانيا فيضرب من كان حوله، ويكسّر الأواني ويمزّق الأوراق التي في متناوله، وعند ذلك الحد بدأ الأقربون يتهامسون ثم يجرون بتلك الهواجس في أحاديثهم:

لو استمرت حالته على هذا النحو، فسينتهي حتما إلى الجنون التام.

- سحر الجن ليس بالسهولة التي تتصورونها.. فمن المؤكد بأنه سيشفى لكن بعد طول أمد ومعاناة كبيرة.

- لا يوجد في هذه الحالة من هو أكفأ من سي العلمي، يده مليحة، وكل من اشتكى علة وذهب إليه أشفاه الله على تلك اليد المباركة. قالت الحاجّة الطاوس.

- دعينا من تلك الخرافات يا عجوز، فالشخص الذي تتكلمين عنه، ما هو إلا مشعوذ ودجال.

- لا تعد هذا القول عن سي العلمي، كيف تتجرأ على هذا الأمر، هل عميت أبصاركم؟، ماذا تقرأون في جامعتكم؟، اعلم أن هذا الرجل كان قد حج إلى بيت الله مرات عديدة، ولا ينقطع ذكر الله على لسانه، فهو رجل صالح جعله الله سببا في شفاء الكثير من المرضى، ودليل إخلاصه هو أنه لا يأخذ مالا من المرضى اللاجئين إليه إلا إذا تركها الزائر خفية تحت السجادة الموجودة في الغرفة التي

يستقبل فيها زائريه.

- ما هي إلا طريقة شيطانية يستغفلكم بها، فهذا الشيخ يدّعي الزهد وما هو بزاهد، وهي وسيلته ليعمي أبصاركم ويستولي على مالكم أيتها الجاهلة.

- مهما يكن من الأمر، فما يحصل مع الزواوي ليس بمرض يمكن أن يداويه طبيب، الزواوي بحاجة إلى طالب يقرأ عليه شيئا، وهو الوحيد القادر على إخراج ما في جوف الزواوي من مواد سحرية، فلا يمكن أن ندع الفرصة تضيع من بين أيدينا ونترك هذا الشاب الجميل يفقد عقله، وكيف نحزن ونحتار والحل في متناولنا؟، وبيت الشيخ العلمي قريب من هذا المكان، وهو الذي تمكن من علاج حالات أعقد بكثير من حالة الزواوي هذه، والشيخ العلمي ليس مشعوذا ولا طالب مال، لا يطمع في رضا أحد، وكل من يراه يحبه بدون تردد ويشعر باطمئنان غريب إليه وانجذاب نحوه، وفي النهاية فإن الشيخ العلمي ليس من طينة المشعوذين.

- عندما كنا في حضرته في مرة سابقة كان يكلم جنيا سكن عجوزا، فما إن سمع ذلك الجني صوت الشيخ حتى شعر برعب واضح من كلامه الذي كنا نسمعه على لسان العجوز وأذعن لأمر الشيخ الصارم دون أي تردد وقد قال له وصوته يتقطع من شدة الرعب: لو لم تكن أنت الشيخ العلمي من يكلمني لبقيت في جسد هذه الشمطاء ولأخذتها معي عند موتي إلى نار جهنم، فرد عليه الشيخ بصوته الصارم ونبرته القوية: «لست يا ملعون من يأخذ هذا أو ذاك من الناس إلى جهنم، ذلك من عمل الله وحده، فاخرج أيها الكافر فورا لعنة الله عليك، ولم ينتظر الجني لحظة واحدة وقد غادر جسد تلك العجوز المنهك ذليلا مهزوما

وكان ذلك الجني من الكافرين كما أكد الشيخ في بداية حديثه، وقد وعد الجني الكافر بألا يعود ثانية إلى جسد المرأة مهما كان من أمره.

واتفـق الجميع علـى أن يذهبـوا بالـزواوي إلى الشـيخ العلمي، لعل الله يشـفيه على يده التي يجمعون على أنها مباركة، ولما كان في حضرته أحسّ برهبة لم يشـعر بها قبل ذلك الوقـت، وهو الأمر الذي لم يسـتطع عقله المسترخي تفسـيره، ثم إن ذلك المكان ورائحته بعثا في ذاكرته شـعورا مبهما كأنه الحنين، فأخـذ الزواوي يحدق في عيني الشـيخ وفـي كل مـرة كان يفعل ذلـك يحس بسـلطة قاهـرة لا يمكن مقاومتها، فخار ما تبقى من إرادته، واستسـلم لذلك التيار القوي، عند ذلك قطع الشـيخ العلمـي صمته الذي طـال والتفت إلـى أم الزواوي يكلمها قائلا:

لا تخافـي يا بنيتـي، «سـببي للولد هذه الريشـة» في مـاء طاهر، وليشربها بالصحة والعافية، والله هو الشافي فإليه يرجع الأمر كله.

ثـم قرأ الشـيخ شـيئا يحفظه فـي قـارورة مـاء الحنفيـة، وأمر أم الزواوي بأن تضعها أمام تحت الشـمس، وتأمر الفتى بأن يغتسـل من مائهـا، وبعدها قال بأن الجسـد سـيتطهر نهائيـا من أدران الشـياطين، وحذّرها من عاقبة رمي ذلك الماء بعد الاغتسـال به في مكان مدنس، ففيـه كلام الله ووجب وضعـه في كل الحالات في مـكان طاهر يليق به.

ونفـذت أم الفتى وصايا الشـيخ الـزواوي بدقة متناهيـة، وعندما اغتسـل الزواوي من تلك القارورة التي زالت برودة مائها بفعل أشـعة الشـمس، حمل بعض أهله ماء الاغتسال ذاك، وسـقوا به شجرة التين الموجودة عند البيت.

بدأت أعراض المرض في الاختفاء، ولاحظ الأهل أن الزواوي أخذ يستعيد عافيته بسرعة، وهو يغتسل بذلك الماء، لكن بمقابل ذلك بدت تصرفات الفتى غريبة، فقد أخذ يتعلق بتلك الشجرة التي تسقى بماء اغتساله، وراح يحدث أهله ويحاول أن يقنعهم بأنه يلتقي الياقوت في كل مرة عند شجرة التين تلك.

في بداية حديثه ذاك عن الياقوت والشجرة، لم يول الأهل اهتماما للأمر واعتقدوه مزاحا أو عارضا طارئا وسرعان ما ينساه الزواوي ويعود إلى سابق عهده من التوازن النفسي ويلتفت إلى حياته، لكن الفتى واصل سلوكه الجديد ذاك بإصرار أكبر وهو يتكلم عن لقائه بالياقوت التي لا يعرفها أحد ولم يسمع بها أحد قبل حديثه عنها منذ أن حدث له ما حدث، وأخذ القلق أوجه على مصيره عندما كانت أمه تنهض وقت منتصف الليل للاطمئنان عليه، فتجده وقد غادر فراشه واتجه إلى شجرة التين يحدثها حديث الإنس للإنس، ثم يتلو عليها كلاما كأنه الشعر لا تفهم منه شيئا.

تحاول التغلب على دموعها وإقناعه بالعودة إلى فراشه لكنها تفشل في كل مرة، وعندها تصرخ باكية وتسرع إلى إيقاظ باقي أفراد الأسرة الذين يجبرونه على العودة إلى فراشه بالقوة، وما إن يتركوه هناك حتى يستغفلهم ويعود إلى مكانه المفضل، ومع توالي الأيام أصبحت شجرة التين تلك من الألغاز التي حيرت الجميع ومن حينها أصبحت تلك الشجرة اللغز تسمى «شجرة الزواوي».

ولما بلغ القلق على مصير الزواوي أوجّه أصبح من الضروري العودة بالزواوي إلى الشيخ العلمي لعله يفكك سر ذلك اللغز الذي حيّر الجميع، وفي حضرة الشيخ الزواوي الذي كان جالسا باطمئنان كأنه

التمثال فقـدت أم الزواوي توازنها وسـيطرتها على دموعهـا، وهي تقول موجهة كلامها إلى الشيخ الذي كان يستمع إليها وهو خافض لرأسه:

وليـدي يا سـيدي، الـزواوي، إني أخشـى عليه من حالـة جنون نهائي.

رفع الشـيخ رأسـه قليـلا ونظر إليهـا بعينين مشـعتين، ثـم أطلق ابتسـامة هادئة واثقة وهو يتأمل الزواوي الـذي كان تائها كأنه في دنيا أخرى، ثم قال الشيخ جملة مقتضبة:

لا تخافي يا بنيتي.. لا تخافي.

ثـم أخرج الشـيخ من تحـت وسـادته كتابا لفـت انتبـاه الزواوي الذي أعـاده قليلا إلى ذلك المجلس، فقرأ في غلافه المجلد «شـمس المعارف الكبرى» ولم يتمكن من قراءة اسم المؤلف الذي كتب بخط صغير وفي جملة طويلة أكثر من اللازم، كما لم يتمكن من قراءة شيء آخر سوى ذلك العنوان الغريب.

فتح الشيخ العلمي ذلك الكتاب في صفحات ذهب إليها مباشرة كأنما يحفظ موقعها جيدا، وقـرأ فقرات منه، لم يفهم الحاضرون منها شـيئا، ثم أخـرج من كيـس كان أمامه الصمغ واليراع ورسـم أشـكالا هندسـية غريبة علـى جبهة الـزواوي، ثم انخـرط في ترديـد تعويذات مبهمـة طويلة، ومع مـرور الوقت راح يرفـع صوته أكثـر فأكثر، وكان الـزواوي يصرخ ويصرخ حتـى كاد ينفجر، وأخذ الحاضـرون يقيّدون حركاته، لكن الشيخ سي العلمي أمرهم بأن يتركوه وشأنه ففعلوا دون تـردد.. خـارت قواه وكان فـي حالة إعياء شـديدة والعـرق ينبعث من مسامات جلده كأن أحدهم صب عليه برميلا من الماء ثم استسلم إلى النوم العميق.

وبينما الزواوي نائم عند الشيخ العلمي، كان الحاضرون يرقبون بعيونهم الزواوي في نومته تلك مرة، ومرة أخرى ينظرون إلى الشيخ وماذا سيفعل في تلك الأثناء، وكان الشيخ محافظا على ثباته المعهود، ثم شرع في الكتابة بذلك اليراع على ورق أبيض أخرجه من كيسه، فكان يكتب دون الاستعانة بالكتاب الموجود أمامه وعندما فرغ من ذلك، وطوى المكتوب بعناية والتفت إلى أم الزواوي وهو يقول لها:

غلّفي هذا المكتوب في جلد الغزال، وعلقيه في رقبة الولد، وبحول الله لن يصحبه بعد اليوم إلا الخير.

وبعد أن سلّمها ذلك المكتوب، بدأ الزواوي الذي كان مستسلما للنوم يتحرك، ثم نهض يريد المشي، فهمّ الجميع بمساعدته على ذلك وهم يريدون العودة به إلى بيت عائلته، وعندما شرعوا في الانصراف صاح الشيخ العلمي موجها كلامه إلى أم الزواوي قائلا:

حافظي على هذا الولد، إني أرى فيه شأنا.

عادت الأم إليه تريد الاستفسار عند أمر تلك الوصية، لكن الشيخ سكت عند ذلك الحد، فلم يجبها بكلمة وأمر بإدخال زائر آخر من بين المنتظرين من الناس، فذهبت المرأة وولدها وأهله إلى بيتهم وكلهم أسئلة.

كارل لويس

قاعة رياضية صغيرة، لكنها مليئة بالحيوية والضجيج، وكل التلاميذ الموجودون هناك يستعدون لبدء حصة الرياضة المقررة، عليهم بالشروع أولا في استبدال ملابسهم العادية بالملابس الرياضية التي كانت في أكياسهم، لكن ذلك الضجيج تحول فجأة إلى صمت مفاجئ عندما سمعوا صوت أستاذ التربية البدنية والرياضية متهكما بشكل كبير وهو يوجه كلامه إلى الزواوي الذي لم يكن بعيدا عنه، فكان يسأله:

كيف حالك يا كارل لويس؟

ولم يفهم أحد مغزى سؤاله، وأخذ الكل يتساءل بينه وبين نفسه: ما هي علاقة كارل لويس البطل العالمي في مختلف تخصصات ألعاب القوى بالزواوي زميلهم العائد لتوه من عطلة مرضية؟ وشيئا فشيئا بدأت معاني تلك العبارة تتضح عندما واصل الأستاذ حديثه التهكمي وهو يمسك بالتميمة المعلقة في رقبة الفتى ويستمر في السؤال بصيغة أخرى:

هذه ميدالية ذهبية أولمبية يا كارل لويس؟ أليس كذلك؟ لكن قل لي هل هي ميدالية المائة متر أم ميدالية القفز الطويل؟

عندها انفجر من في القاعة بالضحك، وحده الزواوي وجد نفسه في وضع محرج للغاية وهو يراها موضع سخرية الجميع، فتمنى أن تنتهي تلك الحكاية المملة والمخجلة عند حدود القاعة،

وعندما غادرها واتجه فورا إلى البيت دون أن يكلم أحدا، فقضى ليلته والحسـرة تأكله وقهقهات الزملاء تنبعث مـن ذاكرته حتى خيّل له بأنه يسمعها فعلا في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

في صبـاح اليوم الموالي نهـض مضطرب البال، وعندما اسـتعاد تلـك الحادثة اضطـرب أكثر وتمنى مـن صميمه ألاّ يذكّـر أحد حادثة أمس المشـؤومة، لكن أمله خاب بسـرعة مع أول الزملاء الذين التقى بهم في ذلك الصباح، فقد واجهوه بتحية لم يسـمع بصيغتها قبل يومه ذاك، عندما قال له أحدهم:

صباح الخير يا كارل لويس.

وأضاف آخر:

كيف حالك يا كارل لويس؟

أدرك الـزواوي حينهـا أن اسـم «كارل لويـس» تحـول إلـى لعنة تطـارده في مسـتقبل أيامـه، وهو الاسـم الذي ينطقـه أقرانـه ممزوجا بسخرية قاتلة، لقد تمنى الفتى الموت قبل أن يتحول إلى محور تهكم المتهكميـن، ولـم يتوقف الأمر عند ذلـك الحد، فقد أصبـح الزواوي مطالبـا فـي كل مرة بشـرح فحـوى تلـك التميمـة المعلقة فـي رقبته، وأصبحت تلك «الميدالية» مثلما سماها أستاذ التربية الرياضية والبدنية مصـدر حيرته، وعند ذلك الحد أظلمت الدنيا فـي عينيه ولم يجد من يفـرغ أمامه بـركان الغضب الذي فـي داخله إلا والدتـه، فما إن دخل البيت ولمحها حتى صرخ في وجهها صارخا:

لقد قررت التخلص من هـذه التميمة اللعينة بتمزيقها ورميها في سلة الزبالة.

ولم تكن أمه تتوقع ذلك، ولم تجد ما تجيب به، وتحاول تهدئته

به إلا قولها:

هل جننـت؟، ألا تعلم أن ذلـك الحجاب الـذي تعلقه هو الذي طرد الشرور التي كانت تحوم حولك؟

ثم أضافت بشكل من الرجاء والحزن:

لا تقـدم علـى فعـل ذلـك، فالأمر أخطـر بكثيـر مما تتصـور يا وليدي العزيز.

ورغم محاولات الأم لتهدئة ولدها وبثّ بعض الأمل في نفسـه، فـإن حالتـه بقيت متدهـورة للغايـة، وقد لازمتـه طيلة بقائه فـي غرفته منعزلا عن العالـم والدموع في عينيه والغصة تـكاد تخنقه، ولما غادر الغرفة بعد حين، اتجه صوب شـجرة التين وعندما وصل إليها وتأملها ضم جذعها بقـوة إلى صدره ثم انفجر باكيـا، وراح يتفوه بكلام مبهم متلعثـم، وعندما لقحت بـه أمه إلى ذلـك المكان ووجدتـه على تلك الحال أصابها الرعب من أن تعاوده الحالة التي أصابته قبل ذلك.

سـمع الأهـل والجيران بـكاء أم الـزواوي وتوسـلاتها، مع تأخر الوقت، فهـب الجميع إلى حيث توجد وولدها عند الشـجرة وأجبروا الزواوي على إعادته إلى فراشه، غير أنه غادر الفراش بعد مدة قصيرة من ذلك وعاد إلى مكانه المقدس عند شجرة التين، فجلس هذه المرة القرفصـاء تحتها وهـو يتأملها في خشـوع ثـم يتأمل ضوء القمر شـبه المكتمل وشيئا فشيئا بدأ جسده يتأثر بالصقيع الذي راح يغزو المكان كعادته في مثل ذلك الزمن من كل سنة.

لم يكن الزواوي في حالته تلك يشعر بقسوة الصقيع، ولـم يلبث أن عاد إلى الحديث للشـجرة، يشكوها حالته النفسية المتأثرة بسخرية زمـلاء الدراسـة، فيتذكر حكايـة كارل لويس الذي لم يعـد يوحي إليه

اسـمه إلا بقهقهات الزملاء المصوبة نحوه كرصاصات قاتلة، ثم تمتد يـده الباردة المرتجفة إلـى رقبته حيث تعلق التميمة يريد الإمسـاك بها وتمزيقهـا لكنه لا يقوى على ذلك كأن الشـلل أصاب يده أو كأنه فقد القدرة على أي فعل مهما كان صغيرا.

جلس متجمدا لا يكاد يتحرك عند الشجرة حيث الصقيع وضوء القمر، ثم وسوسـت له نفسـه بأن ينـزع التميمة من رقبتـه ويمزقها ثم يرمي بقاياها بعيدا حيث لا يراها أحد، لكن شجاعته خانته مرة أخرى، فعـاد إلى البـكاء لعل البكاء يشـفيه من وساوسـه المدمـرة، لكنه بكى بصمت خجول كأنه لا يرغب في إسـماع صوتـه حتى لأقرب أقربائه، وأخيـرا تمكن منه بـرد الصقيع وأجبره علـى مغادرة المـكان والعودة إلى السـرير والاستسـلام للنوم في تلك السـاعة المتأخرة، وهو يفكر فـي النهوض مبكرا والتوجه إلى المدرسـة حيث يسـخر منـه الزملاء، ولم يتمكن من النوم إلا بصعوبة وقد تشوشـت الأفكار في رأسـه، بل وأحس بأن الأفكار تغيب عن ذهنه فلا يكاد يعرف كيف يتصرف.

وعندما نهض في الصباح كان يحس بوجع في رأسه، ولم يغادر الفـراش إلا تحت تأثيـر واجب الدراسـة الملّـح، فكان يمشـي وكأنه ذاهـب إلى حتفه، ولمـا تذكر الهواجس التـي أرّقته في الليلة السـابقة تعكـر صفو ذهنـه أكثر وأكثر، والأفـكار التي كانت تتصارع في رأسـه بل يبق منها سـوى صـورة بطل ألعـاب القوى الأمريكـي كارل لويس الذي ارتبط به أخيرا لسـبب لم يكـن يخطر بباله إطلاقـا، وتحوّل من محب له إلى سـاخط عليـه، فلم يكن يقلقه اللقب فـي حد ذاته، فكل زملائه تقريبا يحملون ألقابا قبيحة، ألصقت بهم في مناسـبات طريفة، كأن تكون زلات لسـان مثلا، لكن الأسوأ يراه حدث مع حالته، فلقب

كارل لويس ارتبط بتلك التميمة التي يحملها في صدره، ولم يستطع التخلص منها رغم أنها تخجله كثيرا، خوفا من تدهور علاقته بأمه.

وطوال مدة دروس الفترة الصباحية لم يكد يسمع شيئا سوى أصوات داخله، وبعد صراع داخلي كبير استقر على رأي عزم على تنفيذه بسرعة، وهو أن يتمرد على التوصيات التي يتلقاها يوميا بشأن التميمة وغيرها وليكن ما يكون، وما إن انتهت المرحلة الصباحية حتى أسرع إلى المرحاض المدرسي كأنه يريد قضاء حاجة لكن حاجته الأساسية كانت هي الرغبة في التخلص من التميمة.

تسللت يده المرتجفة إلى صدره، وبصعوبة بالغة أمسكها، ثم انتزعها من رقبته، ثم أكم قبضته يريد رميها في ذلك المكان النجس، لكن شعورا مفاجئا منعه من ذلك، ثم نشأت رغبة في داخله بأن يفتح تلك التميمة ويقرأ ما كتب في تلك الورقة المعلقة، والمطوية بعناية فائقة، والمغلفة بجلد الغزال حسب تعليمة الشيخ العلمي.

حاول انتزاع الورقة من داخل الجلد، لكنه وجد صعوبة في ذلك، وعندها أعاد التميمة إلى رقبته وعاد إلى سابق هواجسه، لكنه أصبح أكثر إصرارا على فتح الجلد وقراءة ما تحتويه الورقة المطوية، وعندما عاد إلى البيت تسلل خفية عن الأعين إلى غرفة أبيه وأخذ من هناك شفرة حلاقة مستعملة، ثم ذهب إلى حيث لا يراه أحد يفتح التميمة المغلفة بالجلد بشفرة الحلاقة تلك.

لم يكن الأمر سهلا مع الزواوي، فقد ازدادت ضربات قلبه إلى درجة أنه أصبح يسمعها، وارتجفت يده حتى كاد يعجز عن الإمساك بالتميمة المنتزعة من صدره والشفرة التي جاء بها من غرفة أبيه، وأحس بالعرق يتصبب من جبته باردا، بل إن الشفرة سقطت بعد

ذلك من يده المرتجفة، لكنه حاول تنفيذ ما قرره بأي شكل، رغم أن شجاعته كانت تخونه، وعندما عجز أخيرا عن فعل ما أراد وخانته شجاعته حمل الشفرة بيد مرتجفة وأخفاها بين أغصان شجرته، وأعاد التميمة إلى رقبته، وهرول صوب الساعة الحائطية يريد معرفة الوقت للعودة إلى المدرسة في الفترة المسائية.

قضى تلك الفترة كأن لم يذهب، فلم يستوعب شيئا بل كاد لا يسمع شيئا، وقلبه معلق في شيء واحد، ولما عاد إلى البيت مساء لم يستطع مواجهة أحد، وانزوى في غرفته وحيدا رغم إلحاح أمه، ورغم أخذه لمكانه في الفراش فقد كان على موعد مع الأرق، ولم ينم إلا في ساعة متأخرة من الليل، وعندما أخذته غفوة شعر بشخص يفتح عليه باب غرفته، فاعتقد أولا أن أمه تريد الاطمئنان عليه كعادتها، لكن الشبح تقدم أكثر نحو السرير وأزال عنه الغطاء، فنهض الزواوي مفزوعا وقد غمرت رائحة ساحرة أنفه، وهو يردد:

بسم الله الرحمن الرحيم.. بسم الله الرحـ..

- لا تخف يا الزواوي، لا تخف، أنا فقط..

- ومن أنت؟، وكيف جئت؟

- أولم تعرفني بعد؟، أنا الياقوت حبيبتك.

ساعتها أصبح الزواوي أكثر اطمئنانا، فاعتدل في جلسته فوق السرير وراح يتأمل جسد الغريبة، وقد غمرته سعادة لم يشعر بها منذ مدة طويلة، ولم يصدّق بسهولة أن حبيبته الياقوت ستجيء إليه إلى حيث ينام، فشعر برغبة عارمة في الكلام، يخبرها بمعاناته وهواجسه التي تكاد تقتله، لكن المواضيع اختلطت في رأسه وتزاحمت الكلمات في حلقه، واستسلم بعد معاناة للصمت بعد أن أوحت إليه الياقوت بذلك.

عندما طال الصمت، قطعته الياقوت بسؤاله عن أحواله، فلم يتمالك دموعه، وبكى كثيرا في حجرها، وقد سحبته نحوها بقوة وأخذت تداعب شعره بلمسات سحرية استسلم لها كلية.

امتدت يدها بعد ذلك إلى التميمة التي يعلقها على صدره، فانفلت الكلام منه واسترسل يحدثها عما حصل له وحكاية كارل لويس التي جعلته مسخرة بين أقرانه، وأصبحت تخجله أكثر مما كان يتصور قبل ذلك.

عندما أنهى الزواوي حديثه، ساد صمت قصير كان فيه الفتى يتأمل جمال حبيبته وهو لا يكاد يصدق عينيه، لكن الياقوت قطعت ذلك الصمت، بنهوضها وسحبه من يده التي عانقت يدها بحرارة لم يعهدها، ثم مشت معه واتجهت صوب شجرة التين التي أصبحت تسمى شجرة الزواوي منذ أن تعلق بها على ذلك النحو الغريب، ولم يكن طيلة ذلك الوقت يشعر بالظلام الدامس الذي كان يعتم المكان، فالمكان ساعتها في غياب ضوء الكهرباء وضوء القمر كان يشع بنور ساطع غريب، وما إن وصلت معه إلى الشجرة حتى جلست وأوحت إليه بالجلوس، ولما فعل سحبت يدها من يده بلطف، ثم التفتت إلى حيث توجد شفرة الحلاقة المدسوسة في الأغصان فأمسكت بها وأخذتها من هناك ثم سحبت الزواوي مرة أخرى من يده بلطف وعادت به إلى غرفته، ثم جلست معه فوق سريره، وأخذت تنزع التميمة من رقبته، وناولته الشفرة فشرح في شق الجلد وفتح التميمة دون تردد.

أصبحت الورقة المطوية في يده، ولا شيء غير تلك الوريقة التي طواها قبل ذلك الشيخ العلمي بعناية، وبشيء من التردد فتح

تلك الورقة والياقوت تشـجعه على ذلك بشيء من السخرية من تردده ذاك، وما إن فتحها حتى تسـربت إلى أنفه رائحة غريبة بعثت في نفسه ذكريات بعيدة جدا لم يستطع تفسيرها.

حـاول الـزواوي جهده تناسـي تلك الرائحـة التي أخذتـه بعيدا، وقـاده فضوله إلـى قراءة مـا كتب فـي تلك الورقـة، فقد دوّن الشـيخ العلمي بخط مغربي جميل كلمـات مختصرة جدا، كان يمكن أن تقرأ بسـرعة كبيرة، لكـن الزواوي لـم يسـتطع قراءتها رغم وضـوح الخط الذي كتبت به وقصر تلك العبارة، ثم بدأت رائحة الصمغ القوية التي كتبت بها تلك الحروف المكتوبة في الورقة تحدث في دماغه ما يشبه الجرح، يشعر به بقوة ويكاد يتلمسه بأصابعه التي يضغط بها بقوة على رأسـه، وشيئا فشيئا بدأ يفقد التمييز بين الأشـياء ثم سقط مغشيا عليه، وبعد غيبوبة مؤقتة نهض وكان أول ما قاله:

الياقوت، الياقوت.. أين أنت؟

لكـن الفتى لـم يظفر بجـواب، فقد وجد نفسـه وحيـدا، وبعدها بحث عن المنبه يريد معرفة الوقت، وعندما عثر عليه أدرك أن الساعة تجاوزت الرابعة فجرا بقليل، لكنه سـرعان ما نسـي أمر الوقت تحت تأثيـر الجرح الـذي كان يحس بـه في دماغـه، فقد كان ذلـك واضحا جدا إلى درجة أنه يتلمس رأسه أحيانا لعله يجد دما خرج من تلافيف مخه، ثم إنه ظل يشـم رائحة الصمغ بقوة، وهـي تزكم أنفه إلى درجة أنها تكاد تسكره، وتحت تأثير ذلك اضطر الزواوي للعودة إلى التميمة من جديد، أخذ تلـك الورقة المطوية وراح يحـدق في تلك الكلمات الموجـزة، وقـد وجـد أن الخـط ليـس بالغريب عنـه، فقـد تعلمه في الكتّاب صغيرا، وعرف فيما بعد بأنه ذلك الذي يسمى الخط المغربي،

والحـروف كان واضحة له تمام الوضوح، لكنه لم يسـتطع تركيب أية جملة، بل النطق بأية كلمة من ذلك الترتيب المكتوب أمامه.

عندما عجـز عن فك تلك الطلاسـم عاد يتحسـس الجرح الذي كان في رأسه، وشـعر بما يشـبه التفكك في دماغه، ففقد القدرة تماما على التركيز، واستسلم للتيه الذي أخذه بعيدا، وحين يعود إلى التفكير في حالته، يعجز عن اسـتيعاب الأمر، فلم يعد يعـرف أين هو ولا في أية حالة هو عليها، وسـرعان ما يعود إلى البحث عن الياقوت لتنير له حالته دون أن يجدها، وأخذ سـؤال آخر يلح علـى عقله المتعب: هل كانت الياقوت حقا معه وقاسـمته تلك الليلة، أم كانت مجرد حلم من أحلامه الكثيرة؟، ولمـا عجز عن إيجاد الياقوت وبـدأ يفقد الأمل في ذلك، بقي طويلا يتسـاءل بينه وبين نفسه، عن سـر الجرح الذي ينخر دماغه، وبدأ يقتنع بأن الكلمات المختصرة الملفوفة في الورقة المغلفة بجلـد الغزال التـي كان يحملها في رقبته، هي السـر في مـا جرى له، فكان يفكر في ذلك الاتجاه وسـرعان ما ينسـى كل شـيء ويعود إلى تشـمم رائحة الصمغ كالمسـطول، حتى أصبح في حالة تشـبه السـكر نتيجة ذلك.

اسـتعاد الـزواوي لقـاءه مع الياقـوت بـكل تفاصيله، رغم سـوء التركيز الذي كان يعاني منه، وبدأ يسـأل نفسـه: إذا كانت مجرد حلم، فمن يا ترى ذهب معه إلى الشـجرة وجاء بشـفرة الحلاقة وساعده في فتح التميمة؟، ثم إن رائحة الياقوت مازال شـذاها فـي أنفه، ومازالت تحوم في أرجاء البيت من حوله، وعندما حاول تناسي صورة الياقوت ورائحتها التي يكاد يتلمسـها بأصابعـه، عاد إلى التميمـة يحاول قراءة كلماتها المسطورة أمامه دون أن يفلح، ويشعر بالشرخ أكثر في دماغه،

ثـم يخطر فـي باله خاطر، فيسـأل نفسـه إن كان قـد فقد القـدرة على القراءة نهائيا، وسـرعان ما أخرج الكتاب المدرسي من محفظته وتأكد مـن إجادته للفعل، ويذكـر بأنه أول من كان يبدأ قـراءة النص قبل كل زملائه، فما الذي حدث له إذن مع تلك الكلمات المختصرة، وعندما يلح في السـؤال يحس بالجرح الذي في دماغـه ينزف، فهل كان ذلك بداية جنون مطلق؟، لقد بدأ الشك يتسرب إلى داخله.

أي ليلة طويلة وغريبة تلك التي يعيشـها ولا يدري كيف ستنتهي وهل سـتنتهي حقا؟، هل هي حقيقة أم مجـرد حلم مزعج من أحلامه وكوابيسـه التي لا تنتهي؟ وما تلك الحقيقة التي أصبح يعيشها؟، وأين هـي الياقوت التي قضت معه شـطرا من ليلته؟، لمـاذا إذن أدخلته في تلـك الحالـة وذهبـت إلـى حـال سـبيلها؟، وهل سـتعود مـرة أخرى لتخرجه من محنته؟

وبينمـا الفجـر يبيّـن خيوطـه الأولـى، كاد الصـداع يفجـر رأس الـزواوي، والجرح مازال يحـس به ينخر دماغه مـن الداخل، فكر في فعل أي شـيء يخرجه من ذلك المـأزق، لكنه فقد القـدرة نهائيا على فعل أي شيء، واستسـلم للأمر الواقع، ينتظر طلوع النهار، وفي غمرة انتظـاره اليائس ذاك فقد القدرة على الحركة، ثم سـقط أرضا دون أي مقاومة أو رغبة في النهوض من جديد، وفي لحظة سـقوطه ذهب باله بعيـدا في عالـم غير عالمه الذي يتلمسـه، عالم ينضـح برائحة الصمغ وابتسـامات الياقوت التي لا تتوقف، وسـرعان ما تبرز الحروف أمامه لتذكّـره بالجرح الـذي ينخر مخه من الداخل، ثم سـرعان ما يعود من ذلك العالم ويفقد الاتصال به، ويستسلم لغفوة داهمته، وفي نومه كان

الـزواوي يحلم بالذهاب بعيدا عـن هذا العالم الذي أتعبـه كثيرا، ولم يجـد من يأخذ بيـده إلا الياقوت التي كانت تجيئه فجـأة ثم تغيب عنه كالطيف دون أن تودعه ولا حتى أن تشعره بذهابها.

طلعـت شـمس الصباح وانعكسـت أشـعتها على وجـه الزواوي النائم، ولـم يكن يشـعر بها في نومته العميقة التي لم يحصل عليها إلا بعد معاناة في ليلة لا تنسـى، وسـرعان مـا تدخل أمه عليـه في غرفته لتوقظـه وتذكّره بموعد الذهاب إلى المدرسـة، لكنها تصطدم بمفاجأة كاد توقـف قلبهـا عن الخفقـان، فالزواوي لـم يكن في سـريره، وإنما كان ملقى على الأرض كالميت والتميمـة مرمية بالقرب منه، والكتب والكراريس بجانبه، فماذا حدث؟

- وليدي الزواوي؟

صرخت بكل قوتها باكية، ثم ارتمت فوق جسده، فنهض مفزوعا نتيجتها وهو في حالة غير طبيعية.

- ماذا حصـل؟.. أين أنا؟.. من أنا؟، الجـرح، نعم الجرح ينخر مخي.. أخشـى من حـدوث نزيف في دماغـي.. جلد الغزال.. شـفرة الحلاقـة.. والله يا أمي ليس أنا (لسـت أنا) من قام بالعمل.. اسـأليها هـي.. الياقوت.. لقد باتت إلى جانبي وهي مـن فتح التميمة.. يا ليتها مـا فتحتهـا، لقد فتحت معهـا جرحا قديمـا في مخي، الدم يسـيل من تلافيفي.. أخشـى خروج الـدم من أذنـي وعينيّ.. انظروا إلـيّ جيدا.. هاتوا المرآة لأطمئن على رأسي.. أسرع أنت وإلا كسرت ظهرك.

كان واضحـا مـن كلام الـزواوي أن حالته تدهـورت من جديد، وعندهـا سـارعت الأم في حركة يائسـة لتـدارك الأمر، فأسـرعت إلى التميمـة وخاطتهـا مرة أخـرى ثـم أعادتها إلـى رقبته، ثـم حاولت أن

تطمئنه على صحته، وضمته إلى صدرها وبكت طويلا.

انخرطت النساء في البكاء، في مشهد كأنه لجنازة، أما الرجال فقد كانوا صوتا واحدا موجها إلى أم الزواوي التي كانت وكأنها في عالم آخر:

ما هذا الذي تعملينه يا امرأة؟.. ما هذا التصور في أولى ساعات النهار؟ ألا تعلمين أن هذا نذير شؤم؟.. لا تقلقي على مصير ولدك فهو بخير، وأمره في تحسن مستمر، أتذكرين الحالة التي كان عليها في سابق أيامه؟، إن المحنة التي مرّ بها ليست بالأمر السهل، والخروج منها سيتم تدريجيا، فقليلا من الصبر، ومن صبر نال مراده.. إن ولدك على طريق الشفاء.

كانت الكلمات تؤثر في أم الزواوي بشكل جلي، وشيئا فشيئا أخذت تخرج من حالة الهيجان التي كانت فيها، وتستسلم تدريجيا إلى الصمت، أما الزواوي فقد كان في حالة استرخاء تام، وعندما رآه الأهل على ذلك الحال طلبوا له الاستراحة ليوم أو أكثر بالامتناع عن الذهاب إلى المدرسة، غير أنه أصّر على عكس ذلك، فاستعد للذهاب إليها وجسده منهك جراء تلك الليلة المشهودة التي لم يعش مثلها في حياته.

طريق الزواوي إلى المدرسة كانت أبعد مما تصور، فخطاه كانت متثاقلة، وما إن التقى بأقرب زملائه عير بعيد عن المدرسة حتى التقط سمعه عبارة: «كيف حالك يا كارل لويس؟»، لكن العبارة تلك لم تثره مثلما كانت تفعل في السابق، فقد انشغل هذه المرة بأمر أكبر، وهو سر الكلمات المختصرة التي رآها في التميمة والتي لم يستطع فك طلاسمها وأحدثت إرهاقا في أعصابه وجرحا يحس به في مخه.

وأصبحت للزواوي عادة غريبة، يذهب إلى شجرة التين التي

صارت شجرته ليلا، ويفتح التميمة ويجلس ليتأمل تلك الحروف العجيبة التي فعلت بعقله فعلتها، وينتظر الياقوت طويلا لعلها تأتي في ساعة متأخرة وتعينه على فك اللغز الذي بات يؤرقه، لكن الياقوت لم تكن عند الموعد في كل الأحوال، فيعود إلى فراشه متأخرا حتى لا يشعر به أحد من أفراد الأسرة ويشبعه مواعظ ودروسا أصبح لا يطيق سماعها من كثرة ترددها بالشكل نفسه، وعندما تكرر الأمر طويلا أصبح الزواوي يفكر في أن ما حصل له أمر عارض وسرعان ما يستعيد حالته الطبيعية، غير أن أمله كان يخيب في كل مرة، ولم يتخلص رغم إصراره من حالة الإدمان على تلك الحروف التي أصبحت داءه ودواءه، ولم يعد يتصور انفصاله عن تلك الحروف ليلة واحدة، والياقوت التي فتحت له التميمة لأول مرة وأدخلته تلك المتاهة انتظرها طويلا لعلها تعيد إخراجه من تلك الدائرة المغلقة، لكنها لم تأت ووساوسه ازدادت بشكل كبير، تلك المرأة التي بات يفكر بأنها مجرد وهم نسجه خياله المتعب، فمن يا ترى سيساعده على حل هذا اللغز؟ لماذا لا يسأل أستاذ اللغة العربية الذي يثق فيه كثيرا؟

جاءت فرصة الانفراد بالأستاذ، وبكثير من التردد بادره الزواوي قائلا:

أريد سؤالك يا أستاذ عن... عن التمائم.

– التمام التي يعلقها بعض العوام؟.. إنها من بقايا الجاهلية، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول «من علّق تميمة فقد أشرك».

– لكن.. وماذا يكتب فيها؟

– خربشات تافهة لا معنى لها.

– إذا كان الأمر كذلك، فلماذا هي تؤثر في الناس؟

– مـن قال لك ذلك؟، لا تصدّق يا بنـي هذه الخرافات.. للناس الجاهلين إيمان عميق بفاعليتها، وهذا كل ما في الأمر.

ولم يسـتطع الزواوي الذهاب بعيدا في أسـئلته، بل زادته أجوبة الأسـتاذ حيـرة على حيـرة، واقتنـع أن هـذا الرجـل لا يملـك مفتاحا لمشكلته، فماذا سيفعل يا ترى؟

عـاد الزواوي مهزومـا إلى شـجرته، يجلس عندها ويشـتكي لها همومه، لكن الشجرة بدأت تفقد أوراقها مع دخول الخريف، والصقيع أصبـح لا يطاق ليـلا إلى درجة منعـت الفتى من الجلـوس طويلا في الليـل هناك وإلا تجمد من البرد، ومن شـدة يأسـه كان يحدث نفسـه ويحاول إقناعها عبثا:

ربمـا الياقـوت، هجـرت الشـجرة مؤقتا هـي الأخرى لشـعورها بالبرد الشديد.

كان يحـدث نفسـه ذلـك الحديـث، وحالته النفسـية فـي تدهور مستمر، فكيف السبيل لخروجه من تلك الدائرة التي وجد نفسه فيها؟

بقـي طويلا يفكر في رأس الخيط قبـل أن تخطر على باله فكرة، وسأل نفسه: «من كتب تلك الحروف؟»، وسرعان ما أجاب: «إنه سي العلمي»، فلماذا لا يذهب بنفسه إلى الشيخ ليعرف منه سر ذلك اللغز الكبير.. إنه غير بعيد عنه، ففي الغد سـيزوره في بيته بعد الخروج من المدرسة، ولكن.. متى سيأتي الصباح؟.

المسافة بين البيت حيث يسكن الزواوي، وبيت الشيخ العلمي قصيرة لكنها طالت أكثر مما يجب، وكان الزواوي يمشي ويكاد يسقط وقلبه يخفق بطريقة غير عادية، وكان يحس بالمحفظة التي على ظهره ثقيلة أكثر مما كانت عليه وكأنها تحمل همومه ونكباته كلها، وكاد يسقط أكثر من مرة جراء اصطدام ركبته بالأخرى، وكان يسال ينفسه: هل أنا ذاهب لمعرفة الحقيقة دفعة واحدة؟. كان يتمنى ذلك حتى يعود إلى الانخراط في حياته العادية.

وبعد مسيرة طالت أكثر مما يجب، بدأ بيت الشيخ العلمي يطل من بعيد هناك على حافة قرية عين المعقال، لكن الحركة كانت تبدو مزدحمة أمام البيت أكثر من سابق عقده بها، فماذا حصل يا ترى؟

دخل الوسواس قلبه، لكنه استدرك أن الشيخ مشهور كثيرا، يأتيه الناس من المناطق البعيدة بحثا عن الشفاء من الأمراض ونوائب الزمن.

وشيئا فشيئا أخذ الزواوي يقترب من بيت الشيخ، وبدأ يفكر في الكيفية التي سيقابله بها، وأي سؤال سيطرحه عليه في البداية، وكان يعلم أن خجله الشديد سيعرقله، لكنه كان عازما على تخطي ذلك الحاجز حتى يستريح دفعة واحدة من عبئه الثقيل.

وجد الزواوي حشودا مجتمعة بشكل غير عادي حول بيت الشيخ العلمي، وعندما اقترب أكثر ووصل إلى مشارف البيت رأى

الحيرة مرتسمة على الوجوه، وكان بعض الناس يبكي والبعض الآخر يتكلم بحسرة عن مناقب فقيد، فما الذي حدث ومن هو الميت؟

سأل أول من صادفه لكنه لم يحصل منه على جواب، فقد كان المسؤول في حالة ذهول، وربما لم يسمع السؤال أصلا ولا حتى رأى السائل، غير أن الزواوي شق الصفوف وأخذ يسترق السمع.

- هذا غير معقول، فأنا لا أتصور حياة بعد رحيل الشيخ.

- لا تجهل يا هذا، فالموت حق وحتى الرسول صلى الله عليه وسلم مات، والمهم هو كيف نلقى الله؟، فما أسعد شيخنا وهو من أولياء الله الصالحين.

- سأدعو الله في كل صلاة أصليها في البيت وفي المسجد وحتى عند الكعبة المشرفة بأن يحشرني إلى جانبه يوم القيامة.

ومن خلال سياق الحديث بدأ الزواوي يقتنع شيئا فشيئا أن الشيخ العلمي الذي جاء من أجله، يكون قد فارق الحياة، فدخل مباشرة في حوار مع بعض الحاضرين للتأكد من الأمر.

- اخبروني، هل مات الشيخ؟

وأجابه شيخ كان أمامه بيأس: «إنه يحتضر».

وعادت كل حسابات الزواوي إلى نقطة الصفر، لقد أخرسه صوت الشيخ فلم يزد سؤالا بعد ذلك ولم يكلم أحدا بعدها، وأحس بشلل يكبل ركبتيه حتى كاد يسقط أمام تلك الحشود، ووجد صعوبة كبيرة في العودة من حيث جاء وهو يجر الخيبة والقنوط، وواصل صمته وبكاءه الصامت في البيت، وتمنى ألا يرى أحدا ولا يكلمه أحد، ولما حل الظلام، قضى ليلته وكانت ليلة جمعة عند شجرته يبكي بمرارة قاتلة ويكلم الياقوت بين الفينة والأخرى وهو يشعر بأنها

تسـمعه، ثم يقبض بالتميمة ويستنشـق رائحة الصمغ لعله يسـتريح من أوجاعـه التـي لا تنتهي، لكنه بذلك يـزداد ألما ويحـس بالجرح الذي ينخر مخه يكبر باستمرار.

كان الزواوي يطمئن نفسه بأن الشيخ العلمي لم يمت بعد، فربما عادت إليه الحياة بعد تلك الأزمة ليكشـف له السر الكبير الذي أخلط له تلافيف مخه، وأدخله تلك الدائرة السـوداء، لكن اليأس سرعان ما يتسـرب إلى قلبه ويتذكـر حظه الذي كان سـيئا فـي كل الأحوال، بل إن وساسـه تحدثه بأن حاجته الملّحة للشـيخ العلمي هي التي عجّلت بموته، ثم يتذكر أن يوم الغد هو الجمعة وهو يوم عطلة، فليذهب عند طلوع الشمس إلى بيت الشيخ العلمي ليعرف الخبر اليقين.

بعد ليلة أرق اعتقد بأنه سـيفقد فيها ما تبقى من عقله، لم يكمل قهـوة الصباح وخرج فـورا في غفلة مـن أهله واتجه إلى بيت الشـيخ العلمي، وهناك وجد الجموع غفيرة، وكان يسمع البكاء من بعيد. لقد مات الشيخ العلمي لا شـك في ذلك، وبعد تعثر وصل إلى البيت في تلك السـاعة المبكرة، وانظم إلـى أقرب مجموعة مـن الناس صادفها في طريقه، ودون أن يلقي التحية أخذ يسمع ما يقولونه:

هـل رأيتم ما حـدث من بركات الشـيخ؟، لقد كانـت تنبعث من جسـده الطاهر رائحة البخور، وتلك الرائحة نفسـها شـممتها عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم في الروضة الشريفة.

– بعـد موته مباشـرة، تحـول لون جثتـه إلى الأخضـر، وهو بلا شـك لون الجنة كما كان يخبرنا هو في سابق الأيام، فليس هو بالولي الصالح.. ربمـا يكون من أنبياء اللـه الذين يبعثهم فـي كل زمان وكل مكان.

- لا تنسوا أن سيدنا محمد هو آخر الرسل والأنبياء.. أولياء الله الصالحين هم ما تبقى لهذا الزمان، وسيدي العلمي ولي صالح ، سوف نبني له قبة بجوار سيدي الزواوي وقد أوصانا بذلك قبل وفاته.

- الغريب في أمره أنه لم يشتك من مرض، وبمقابل ذلك كان يتكلم عن تفاصيل موته بكل دقة وكأنه كان يوحى إليه، لقد انكشفت له ستائر الغيب وكان يعلم ما لا يعلمه سائر الناس، نحمد الله على أننا عشنا بجانبه ومشينا فوق التراب الذي لمسته رجلاه الطاهرتان ونلنا قسطا من بركاته التي لا تنتهي.

- عندما علم باقتراب أجله، جمع أهله وأوصاهم بتقوى الله، ثم أخذ يقرأ القرآن العظيم، فختمه ثمانين مرة وعند إكماله الختمة الثمانين للقرآن العظيم فاضت روحه إلى خالقه وكأنه يستسلم لنوم لذيذ، وأثناء القراءة الأخيرة كان يشير بيده الطاهرة إلى الموت الذي كان يراه بلا شك، أشار في البداية إلى رجليه، ثم أخذت يده تصعد مع صعود روحه إلى أن وصلت إلى فمه، وعند ذلك لم يبق له من أحزاب القرآن العظيم الستين إلا الآيات الأخيرة من «قل أعوذ برب الناس»، فأشار بسبابته اليمنى إلى سي الطاهر وهو أحد حفظة القرآن ومن أقرب الناس إلى قلبه، الذي أكمل الآيات: «من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس».

- عند ذلك عرفنا بأن الشيخ قد توفاه الله عز وجل وأخذه إلى جواره، وقد تحوّل لون جسده إلى الأخضر وانبعثت منه رائحة لم نشم قبلها عطرا أفضل منها، وقد أخبرنا سي الطاهر من قبل أن تلك هي رائحة الجنة وأن اللون هو لونها.

وعندما تأكد أهل الشيخ من وفاته، عجّلوا بجنازته، وصلى الناس صلاة الجمعة ثم صلاة الجنازة على الجثة في مسجد قرية عين المعقال، وكان الجمع حاشدا لم تعرف القرية مثله، فقد شد الناس الرحال صوب المقبرة من كل مكان، ولم يبق في البيوت إلا النساء والأطفال، وكانت كلمة سي الطاهر التأبينية وهو أقرب شخص إلى الفقيد مؤثّرة بالفعل، بكى خلالها الناس كالنساء الثكالى، ولم يستطع سي الطاهر نفسه وسقط قبل إتمام الدعاء للميت وللأمة جمعاء، وأسرع الكبار إلى الإحاطة به للاطمئنان على صحته..

– لقد مات الرجل من شدة تأثره بالموقف.

ذلك ما أعلن في الناس، فكانت الفاجعة مهولة وقد أصبحت الجنازة جنازتين، فدفن الشيخ العلمي وأعيدت جثة سي الطاهر إلى البيت، فغسلت على الفور وأعيدت في المساء إلى المقبرة من جديد لتدفن بجوار جثة سي العلمي، فربما كان ذلك أقصى ما تمناه سي الطاهر، وقد جعلته وفاته المفاجئة تلك رفيقا للشيخ العلمي في قبته الجديدة التي أخذ البنّاؤون في تشييدها.

وكان اليوم مشهودا في حياة الزواوي، فلم يذهب إلى بيته منذ الصباح، وعندما علم بأن سي الطاهر هو موطن سر الشيخ العلمي كان يفكر في سؤاله بعد الجنازة عن السر الكبير، لكن سي الطاهر هلك في الحين وشاء الله أن تسير الأمور على عكس ما يشتهيه الفتى، فماذا سيفعل يا ترى؟

بعد يوم سيء، عاد الزواوي إلى البيت مستاء منهكا للغاية، وكانت أمه تطرح عليه أسئلتها المكررة دون أن تظفر بجواب واحد كعادتها، ودخل مباشرة إلى غرفته، وهناك نزع تميمته من عنقه

وفتحها وأخذ يتهجى تلك الكلمات المختصرة المكتوبة على بياضها، ثم أخذ يغازل الجرح الذي يحسه في مخه، وبقي طويلا على ذلك الحال وكان يحس بأنه يغرق في الدوامة التي دخلها منذ أن فتح التميمة لأول مرة، وكان يبكي في صمت وفكره مشتت بين ماض سحيق أحس بأنه عاشه دون أن يتلمس تفاصيله، ومستقبل غامض لم يستوعب معالمه تماما.

في ذلك الجو تذكر الزواوي شجرته المقدسة والليل جاثم على القرية، فأسرع إليها بشوق ولهفة وأخذ يبكي عند جذعها، وهو يكلمها معاتبا، وفجأة أحس بيد ناعمة تحيط بقفاه، فالتفت إلى الخلف وكانت مفاجأته كبيرة جدا، وقال:

الياقوت؟.. أين أنت؟ لماذا غبت كل هذا الوقت؟

- أهلا الزواوي.. لم أغب.. أنا موجودة هنا باستمرار، أنت فقط الذي لم تلتفت إلى وجودي..

- أنا منهار، أكاد أفقد عقلي.. رأسي سينفجر، فماذا أفعل مع هذا المأزق الذي أدخلتني فيه؟

كان الزواوي يتكلم ولا يستطيع مقاومة دموعه التي تسيل بغزارة، وكانت الياقوت صامتة على عكس ما عهدها، ثم أخذ الزواوي يتكلم بسرعة وبارتباك شديد، فقد أراد أن يلقي بالحمل الذي يثقله دفعة واحدة، لكنه لم يتمالك نفسه وفقد توازنه، واستسلم للانهيار.

بعد غيبوبة استعاد الزواوي وعيه، فوجد نفسه وحيدا أمام شجرته، واسترجع خياله فجأة صورته مع الشيخ العلمي عندما كتب له تلك التميمة، وكان في الصورة المستعادة تلك كتاب يحمله الشيخ، تذكر الزواوي عنوانه بسهوله تامة: «شمس المعارف الكبرى»،

لكنـه جهل اسـم المؤلف فلـم يتمكن مـن قراءته في حينـه، فلماذا لا يكون السر كله في الكتاب؟.. سوف يعمل جاهدا على الحصول على نسخة منه ليعرف ما تخفيه صفحاته.

اعتقد الـزواوي أن مكتبـة الثانوية تحتوي علـى كل كتب الدنيا، وعندما أراد الحصول على نسـخة من ذلك الكتاب الذي تذكر عنوانه كامـلا لم يخطـر بباله لتحقيق مـراده إلا تلـك المكتبة التـي لا يعرف غيرها، لكنه عندما ذهب إلى هناك وسأل الكتبي عن الكتاب المطلوب كان رده غير المنتظر مخجلا بل ومربكا وقد قال له:

لماذا تبحـث عن مثل تلك الكتـب الصفراء؟، فهـذه النوعية من الكتب تجاوزها الزمان، وهي مملوءة بالخرافات والأساطير.

احتـاج الفتـى للكثيـر مـن الشـجاعة ليصمد أمـام ذلـك الكلام الجارح، وتابع يسأل:

وماذا تعرف عن هذا الكتاب؟

- «شـمس المعارف الكبرى»، كتاب منسوب إلى العلاّمة جلال الديـن السـيوطي صاحـب الكتـب الكثيـرة، والدارسـون المحققـون يشـككون فـي نسبة الكتاب إلـى ذلـك العملاق المشـهود لـه بالعلم والاسـتقامة، ففي الكتاب دروس تطبيقية في الدجل والشعوذة ما أنزل الله بها من سلطان.

- وهل توجد في المكتبة نسخة منه؟

- هل جننت؟، كيف نبقي بين رفوف مكتبتنا على كتب التخلف والدروشـة؟ ، هنا لا وجود إلا للكتب العلمية الجيدة والأدبية الرفيعة والتاريخية المفيدة والموسوعات الضخمة و...

وبينما كان الرجل يتكلم بتلك اللهجة الممزوجة بالحدة والتفاخر، مشى الزواوي بخطوات متثاقلة وهو يجر اليأس وراءه، مما جعل الكتبي ذاك ينتبه فجأة، ويقتنع بأن ذلك الشاب غير سوي، لكنه لم يسترسل في تحليل تلك الشخصية التي رآها غريبة، فقد انخرط في عمله من جديد مع تلاميذ طلبوا بعض الكتب تخص بحثا مدرسيا في الفيزياء.

لم يستسلم الزواوي لحظة واحدة لليأس، وهو يطالب كل معارفه بأن يزودوه بنسخة من كتاب «شمس المعرف الكبرى»، وفي انتظار ذلك اكتشف الفتى مكتبة البلدية التي لم يزرها من قبل، وفجأة أصبح نهما لكل الكتب الموجودة في رفوفها، فكان يتردد عليها يوميا ويستعير الكتب ليقرأها في البيت، ومع مرور الوقت زادت شهيته لتلك النوعية من الكتب، فأخذت القراءة عنده طعما جديدا وأصبح يحس فيها حياة لم يكن يجدها في الكتب المقررة والتي كانت قراءتها بمثابة عقوبة.

وفي سلسلة واحدة عرف الكثير من الكتّاب لم يكن يسمع بأسمائهم من قبل، قرأ كتاب «رسائل إخوان الصفا» من أوله إلى آخره، وقد دهش لرسالة في السحر، لكنه لم يجد في تلك الرسالة سر كلمات التميمة التي مازالت تنخر مخه وتشتت خيوط تفكيره، وسرعان ما شغل بجماعة إخوان الصفا وأراد معرفة أسمائهم وبعض خصوصياتهم، وقاده البحث من كتاب إلى آخر إلى أن عثر على كتاب في السلسلة نفسها هو «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي الذي حفظ اسمه وأصبح يحبه كما لم يحب كاتبا في حياته، ففي كتاب الإمتاع ذاك عرف بعض أخبار إخوان الصفا واكتشف أسلوبا لم

يكن يعرفه من قبل وعندما قرأ سيرة أبي حيان التوحيدي تعلق به أكثر وأصبح دائم الحضور في تفكيره المشوش.

ولـم يكتف الـزواوي بتلك الكتب، بـل أصبحـت ذاكرته تحفظ أسماء غير مألوفة لمؤلفين عند أقرانه مثل النفري، وابن سبعين وجلال الديـن الرومي وغيرهـم، وقد أخذ بأسـاليب هؤلاء الكتّـاب، وأصبح يعيش فـي عوالمهـم، عالـم متخيـل، ويتماهى مـع أصدقائـه الغرباء، وينفتـح جرحه عميقا، ويحاول أن يجد أي خيـط يربط هؤلاء الكتّاب بتلـك الكلمات التي قرأها في التميمة، ومع الأيـام كاد الزواوي يقتنع أن الخيط ذاك سـيوصله حتما إلى الحقيقة التي يريدها، لكنه سـرعان مـا يعود خائبا عند نهايـة كل كتاب يقرأه وبالمقابل يـزداد تعلقا بذلك النوع من الكتب.

كان الـزواوي فـي كل مرة، يأخذ كتابـا معه إلـى البيت ويجلس عند شجرته المقدسة، فيظن أفراد أسرته بأنه يراجع مقرراته الدراسية، لكنه أثاء ذلك يرحل بعيدا في تلك العوالم الصعبة التي يستلذ الذهاب إليها، ومع تلك القراءات المتكررة أصبح يحس نفسـه مشـحونا حتى خشي على نفسه من الانفجار، وكان يسـأل أساتذته ومن يتوسم فيهم المعرفـة والعلـم، وبالمقابـل كان يخجـل مـن مصارحتهـم بمـا يقرأ، ويحـاول معرفـة الأرض التـي هو فيهـا بطريقـة ملتوية، وفـي كل مرة كانت الإجابة الموحدة تصفعه فيكاد يفقد ما تبقى من قوته ويستسـلم للسقوط.

– مـن أين لك بتلك الأسـماء؟.. إنهم زنادقة.. شـواذ.. يريدون تشويه ديننا الحنيف لكن هيهات..

يزيده الجواب ارتباكا، ثم يسـأل نفسـه مثلما يفعـل في كل مرة:

إذا كان يستلذ كتابات هؤلاء، فهل الأمر يعني أنه زنديق مثلهم؟، ويحاول الهروب في كل مرة من ذلك السؤال المحرج، ثم يتذكر تلك الكلمات المختصرة، ويفتح التميمة ثم يحاول مجددا تهجي ما كتب فيها، وسرعان ما يشعر بأن الجرح الذي ينخر مخه ينفتح من جديد، ويحس بشيء كالنشوة ثم يذهب تفكيره بعيدا ويحاول الخروج من تلك الحالة، فيقرأ كتابا أتى به في يومه ذاك.. كان الكتاب ديوان شعر للشيخ محي الدين بن عربي بعنوان «ترجمان الأشواق»، عبارة عن قصائد عمودية، لكنها تنبض بحياة، وليست ميتة كالتي قرأها في مقررات المدرسة والتي لا يستطيع حفظها مهما حاول، ويصاب بدهشة كبيرة عندما يحفظ أبياتا من ذلك الديوان بشكل تلقائي، ويسأل نفسه: لماذا يحفظ هذا الشعر الصعب دون أن يقصد حفظه، ويعجز عن حفظ أبيات مقررة رغم وضوحها ورغبته الملحة في ذلك؟، وعندما لا يجد جوابا ينخرط من جديد في قراءة ترجمان الأشواق بصوت مسموع، وكأنه يغنّي أمام جمهور كبير.

وعند شجرته المقدسة، أحسّ الزواوي بأن الشحنة التي بداخله تكاد تنفجر، وعندها سلّم الأمر إلى قوة عليا تسيطر عليه، وأسرع إلى الغرفة ليأتي بكناش صغير وقلم رصاص، ثم بدأ يكتب كلمات غير منسقة، لا يهمه معناها، واسترسل في الكتابة إلى أن شعر برغبة في التوقف، وعندها أحس براحة نسبية وحاول قراءة ما كتب، لكنه سرعان ما يستعيد الحالة النفسية التي كان عليها عند الكتابة، فتتشنج عضلاته ويرمي الكناش بعيدا وينخرط في البكاء بصوت مختنق حتى لا يشعر به أحد.

وعند شجرته تلك يواصل الزواوي جلوسه وهو يكلم الياقوت،

ويسألها لما تتخلى عنه في أوقات الشدة؟ لماذا لا يبقى إلى جانبه في كل حال، عوض أن تذهب كالطيف وتأتي كالطيف في أوقات اليأس من العثور عليها؟ لماذا؟ لماذا؟، فيلّح في أسئلته تلك دون أن يظفر بجواب واحد.

يتذكر الزواوي في قمة يأسه ذاك «شمس المعارف الكبرى».. الكتاب الذي يبحث عنه دون جدوى، فأين سيجد نسخة منه يا ترى؟ وفي حالة العثور عليه، هل سيجد فيه أجوبة على أسئلته المحيّرة؟، في انتظار ذلك كان على الفتى قراءة «فصوص الحكم» للشيخ محي الدين بن عربي للمرة الخامسة أو السادسة، لا يذكر بالضبط.

كان غلاف كتاب «شمس المعارف الكبرى» يتوارى شيئا فشيئا خلف ذاكرته المتعبة، وبدأ يعتقد بأنه مجرد وهم من أوهامه إلى أن صدمته المفاجأة، زميله في الثانوية نبيل أخبره بأنه حصل على نسخة من الكتاب الذي يبحث عنه، كان نبيل يفكر في النسخة الموجودة في بيت خاله، نسخة صفراء قديمة جدا ويعتقد بعض أهل الدار أنها كتاب الله المقدس، أخفتها الجدة في خزانتها لعلها تأتيها بالخير والبركة إلى ذلك البيت العتيق.

لقد عرف نبيل مكانة الكتاب وذهب خصيصا لأخذه، ولم تكن تهمه صداقة الزواوي بقدر ما أغراه مبلغ بيعه، وقد طلب فيه مائة دينار، ولم يساوم الزواوي كثيرا في المبلغ الذي لم يكن يمتلكه، فلجأ إلى أبيه طالبا مائة دينار مدعيا أنهم طلبوها منه في إدارة الثانوية.

ولم يصدق الزواوي عندما وقعت يده على غلاف الكتاب الذي يئس من الحصول عليه، وعندما تلمسه بيده أحس بأن المتاعب والهموم سوف تزول من أمامه، وأن ذلك الكتاب الأصفر سيكون

مفتاحا لحل كل الألغاز التي تحيّره، فأسرع على الفور إلى البيت وهو يكاد يسقط من شدة الفرح الممزوج بالخوف والفضول، وبدأ فورا في القـراءة من الغلاف الأول بدون انقطاع، ومـع تقدمه في القراءة وجده كمـا قيل له يحتـوي على الكثير من الأمـور التي لا يقبلهـا عقله، ولا يستسـيغها ذوقه، وأثناء القـراءة كانت الكلمات الموجـودة في التميمة مرسـومة في مخه ويحـس معها بالألم الذي تسـببه لـه، وكان مع كل كلمة يقرؤها ينتظـر العثور على ما يقابلها في الكتـاب ومفتاح فهمها، لكـن الصفحات أخذت تنتهي ومعها ينتهي من قراءة الكتاب كله دون أن يظفر بأي شـيء جديد، وكـم كانت صدمته كبيـرة وهو يرى الأمل الوحيد الذي تعلق به ينهار دفعة واحدة أمام عينيه.

اسودت الدنيا في عينيه واستسـلم كلية لليأس، ولم يعد يستطيع التفكير فيما يعمل، ورمى بالكتاب جانبا وذهب إلى شجرته كأنه مسيّر آليا نحوها، وهناك أعاد فتح تميمته وأخذ يستنشـق رائحة الصمغ التي مازالت تنبعث بقوة من تلك الحروف المكتوبة بالخط المغربي العتيق والتي أخلطت حياته وأدخلته في دوامة لا يعلم متى سـيخرج منها بل أصبح يتساءل إن كان سيخرج منها أصلا.

- من أين لي برأس الخيط يا ترى؟

كان يسـأل نفسـه بإلحاح، وفي عتمة يأسـه الشـديد، تذكر فجأة الشـيخ العلمي بكل ملامحه عندما زاره لأول مرة، وأخذ يسأل نفسه: ترى، من أين أتى الشـيخ بتلـك الكلمات؟ هل كان أحـد الأنبياء وأن الـكلام الذي كتبه من الوحي؟، وسـرعان ما يجيب نفسـه: لا.. عصر الأنبياء قد ولى.. فما السر في الأمر يا ترى؟

يتذكر الزواوي أنه عندما ذهب إلى الشـيخ ورآه لأول مرة سحر

بشخصيته، ولم يستطع مقاومة ذلك السحر، وأحس بشعاع يشده إليه، وعندما سمع كلامه أسره تماما، لكنه لم يفكر ساعتها في سر ذلك، فقد كان ذهنه مشتتا بالكامل، كان الفتى يكلّم نفسه ويقول:

ذلك الشخص بقي لغزا، ومن المؤسف حقا أنه مات وذهب دون رجعة مثل كتاب مغلق.

وعندما سأل عنه الأهل، قالوا إن الشيخ العلمي هو أحد أولياء الله الصالحين وكفى، وأحيانا يقال له أن الشيخ كان يقرأ من اللوح المحفوظ، فهل يعني هذا أن تلك الكلمات المكتوبة في التميمة، نقلها الشيخ من اللوح المحفوظ؟

يسأل أستاذ التربية الإسلامية بطريقته المراوغة غير الصريحة، فيجيبه الأستاذ فورا وكأنه انتظر السؤال منذ أمد: «لا تصدق خرافات العجائز يا ولدي، فهذه الأفكار البالية هي من بقايا عصر الانحطاط، وهي من البدع التي أبعدتنا عن المحجة البيضاء التي تركنا عليها رسولنا الكريم».

ولم يعد يدري الزواوي من يصدّق، وذهنه مشتت بين تلك الأفكار المتناقضة. لكن الشيء الذي اقتنع به تمام الاقتناع هو أن الشيخ العلمي هذا هو لغز كبير، وأن الحل هو في معرفة قصته كاملة، لكن من أين له بذلك وكل الأبواب قد سدت في وجهه ولم يعد يقدر على فعل أي شيء.

استولى الشيخ العلمي على كامل تفكير الفتى حتى كاد ينسى أمر التميمة لولا الجرح في مخه الذي يجدد تفكيره في تلك المأساة، وقد ذكّره التفكير في الشيخ بيوم جنازته الذي شهد جنازتين، وبقيت الذكرى سيئة في باله، ومن ساعتها أصبح لا يحب المشي في

الجنازات والذهاب إلى المقابر، لكن شوقه لمعرفة الحقيقة سيدفعه إلى عكس ما يشتهي، وهو يسرع الخطى باتجاه مقبرة سيدي الزواوي حيث يرقد الشيخ العلمي.

كان الفتى يتقدم نحو المقبرة وهو يشاهد من بعيد القبة الجديدة التي وضعت للشيخ وهي تنافس في علوها تلك التي اشتهر بها سيدي الزواوي دون باقي الأموات على مر السنين المتعاقبة، فهل أصبح ينافسه في قدسيته؟ وما حكايته بالضبط؟، ولماذا لا يعرف عنه الناس إلا أشياء أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع؟

كانت الأسئلة تتهاطل على ذهن الزواوي وهو يكلم نفسه كأنه فقد بقية عقله، وهو بصدد الذهاب إلي الشيخ العلمي في نهاية ذلك الأسبوع الذي بدا طويلا كأنه الدهر، من أجل البكاء عند ضريحه لعل المحنة تزول ويعود إلى حياته العادية مثل سائر الناس، لكن ماذا عسى تلك الزيارة أن تفعل والشيخ العلمي قد فارق الحياة.. وهل بوسع الأموات فعل ما عجز عنه الأحياء؟

أصبحت للشيخ العلمي إذن قبة بجوار قبة سيدي الزواوي، كان بناؤها أكثر حداثة، وكان زوّارها يتزايدون يوما بعد آخر، وما إن زارها الفتى الزواوي لأول مرة حتى ذهل للمنظر.. روائح البخور تنبعث.. الشموع مشتعلة.. النقود منثورة في أرجاء القبة، رماها أشخاص جاؤوا من كل مكان وفي قلب كل واحد حاجة يريد قضاءها.

دخل الزواوي القبة بكثير من الرهبة، وهناك وجد ضريح الشيخ مغطى بإزار أخضر وفي السقف رأى حمامة وضعت عشها، وقيل إن تلك الحمامة كانت ملكا للشيخ العلمي في حياته وكان يعتني بها عناية خاصة، وعندما مات غادرت البيت بشكل نهائي رغم أنها كانت حرة طليقة ولا تغادر بيت الشيخ إلا قليلا، وقيل إن الناس رأوا الدموع في عينيها كما لو يروا دموعا في عيني حمامة من قبل، وكانت تطير فوق موكب الجنازة ثم بنت لها عشا مؤقتا عند المقبرة، وعند تمام بناء القبة نقلت عشها إلى داخلها واستقرت عند صاحبها، ويحكى أن البنّائين كانوا يشاهدونها وهي تطير عندما يغادرون المقبرة متجهة إلى قبر صاحبها وكانت تعزف لحنا حزينا عنده، وقد اختلف الناس في تفسير سر ذلك الهديل الأقرب إلى النواح، هل هو تعبير عن حب أم نذير بشؤم؟

جلس الزواوي عند ضريح الشيخ العلمي وهو يتأمل في البداية المشهد الذي أمامه، ثم انفجر باكيا وهو يكلم الضريح وكأن الشيخ

يسـمعه.. لماذا أدخلـه تلك المتاهـة اللعينة؟، ما سـر تلـك الكلمات المختصرة الغامضة؟، وكيف تعلمها الشيخ الراحل؟ وما هو مصدرها وأين ستأخذ الفتى؟، هل تؤدي إلى النجاة أم إلى الهاوية؟

كان الزواوي يتكلم بسرعة وهو يغالب الدموع ويمسك بالتميمة بكلتـا يديه، ويحـاول تهجي الحـروف المغربيـة العتيقـة الغربية تلك، ويحـس بالجـرح الـذي بدماغه ينفتـح أكثـر وأكثـر، وكان الوقت يمر بسـرعة فائقة والزوار الذين أتوا إلى هناك كلهم غـادروا المكان، ولـم يبـق إلا فلـول الرعاة الذيـن بدؤوا في العـودة إلى ديارهـم مع قطعان مواشـيهم، ولم يكن الزواوي يشعر بمرور الوقت وكأن المكان سحره أو أنه مربوط بقيد سحري لا يستطيع الفكاك منه.

غابـت الحركة نهائيا فـي محيط المقبـرة، ووحده الـزواوي كان يكسّـر الصمت بكلامه وصرخاته، وبينما هو منغمس في طقسـه ذاك، أحسّ بحركة شخص غريب وقف عند رأسه.

اعتقـد الـزواوي فـي البدايـة أن الياقـوت التـي انتظرهـا طويـلا جـاءت إليه من جديـد، والتفت إلى جانبـه وهو يريـد معاتبتها غير أن مفاجأة أخرسته، فالذي يقف عند رأسه شيخ غريب، في جسده رائحة المـوت، لحيته بيضـاء ناصعـة وثيابه كله بيـاض في بيـاض، فانتفض الزواوي مرعوبا كأنه يريد الهرب من ذلك الشبح وهو يقول:

من أنت؟

- لا يهـم السـؤال من أكـون؟.. لماذا أنـت هنا في هـذا الوقت المتأخر؟

- لا أدري يا سيدي.. لقد جئت في زيارة لضريح الشيخ العلمي ونسيت نفسي.

- مقامه ساحر، أليس كذلك؟

- ...

- أرى في عينيك هموم الدنيا، هل لك حاجة عند الشيخ؟

- هو دائـي ودوائي، لا أعرف مـن أين أبدا الحكايـة؟ أعتقد أن حكايتي معه بلا بداية وستنتهي بي إلى الهلاك التام.

- أعرف ما يجول بخاطرك.

- وهل تعرف شيئا عن الشيخ؟.. أرى بأنه محيط بالأسرار، وقد ضيعني معه قبل رحيله.

- إيه يا ولدي، كيف لا أعرف الشيخ؟، إنني أحفظ حكاية حياته عـن ظهر قلـب من بدايتهـا إلى سـاعة وفاته، وقد عشـتها معـه لحظة بلحظـة، ولئـن كان مـن الصعب إعـادة ما مضـى فإني على اسـتعداد لإخبارك بما جرى..

واسترسل الشيخ في الحديث:

نشـأ العلمي يتيـم الأب، وكان منذ طفولته يعيـش الفقر المدقع، فلم يتسـن لـه التعلم إطلاقا ونشـأ أميا لا يقـرأ ولا يكتـب وكان رمزا لطيـش الأطفال.. رعى الأغنام لسـنين عديـدة حتى يتمكـن من إعالة أسرته وهو طفل، فقد وجد نفسه المسؤول عن الأسرة وهو لم يتجاوز السابعة من عمره بعد موت أبيه بمرض غريب ألزمه الفراش طويلا.

لقد عانـى الناس كثيرا من طيـش الطفل العلمي، فلم يسـلم من شـر لسـانه الحاد شـخص مرّ من أمامه، ودفعه طيشـه ذاك إلـى القيام بتصرفات غير حميدة، وكان بين الحين والآخر يسرق الدجاج والبيض ويحـاول بيـع ما سـرقه فـي السـوق، وعندمـا يكتشـف أمـره يتعرض للضـرب المبرح، وأصبح الكل يتهمه عند اختفاء أي شـيء، ورغم ما

لقيه من ضرب وتأنيب لم ينثن عن طيشه، وكان العلمي سليط اللسان قوي الحجة رغم حداثة سنه وهذا ما حبّبه إلى قلوب الناس، فالكل كان يتظاهر بكرهه والكل كان يحبه في عمقه.

وكانت الأيام تمر، والناس يرون العلمي يكبر بينهم، تنبأ البعض بأنه يكون لصا محترفا، وبعضهم رأى في سلوكه الأول مجرد طيش طفولة، وسرعان ما يعقل ويصبح مثل بقية الناس البسطاء يوم يلتزم بأي عمل بسيط يكفل له العيش الكريم.

كان العلمي يمتلك كلبا اسمه «روميو»، وكانت علاقة العلمي بروميو قوية وغريبة، يذهبان معا إلى صيد اليرابيع، وكان العلمي خبيرا في ذلك، يحفر الغار بفأس صغيرة ويستعمل الماء عند الضرورة، وعندما يحس اليربوع بالخطر يخرج من غاره فارا بجلده، وهنا تبدأ مهمة روميو، ففي رمش من العين يعود ممسكا ذيله بأسنانه ويسلمه إلى يد العلمي، وفي كل مرة كان الثنائي العلمي وروميو يعودان بصيد وفير، وجبة غذاء لكليهما، وعندما توطدت العلاقة أكثر، أصبح الناس لا يتصورون العلمي بدون رفيقه روميو، وحاول أقران العلمي تدريب ما يمتلكون من كلاب على الصيد، لكنهم عجزوا عن إيجاد كلب مثل روميو، وكأن الأخير خلق من طينة غير طينة بقية الكلاب.

عندما يحاول بعضهم طرد روميو من أمامه، أو حتى النظر إليه بارتياب، ينال حظه من عقاب العلمي، وبهذا أصبح الكلب روميو في مرتبة يحسده عليها الكثير من البشر الذين سيطر عليهم العلمي بقوته وجبروته، ولم يكن أحد يتصور نهاية علاقة العلمي بكلبه بتلك الطريقة المفجعة، لكن الأمر حدث بالفعل.

ظهرت على روميو أعراض إرهاق بشكل مفاجئ، ربما كان

يشكو مرضا في باطنه، وكعادته اصطحب العلمي صدقيه إلى صيد اليرابيع بعد ضحى يوم صيفي قائظ، وكان أقران العلمي مجتمعون عند غار اليربوع الذي همّ الفتى بحفره، وعندما أحسّ بقرب نهاية اليربوع، صبّ إناء الماء الذي معه في الغار، فخرج اليربوع هاربا بجلده كما توقّع، فأشار العلمي إلى روميو بأن يقوم بعمله المعتد، لكن المفاجأة كانت قاتلة بالفعل.

لم يجر الكلب وراء اليربوع كالعادة، فقد بقى مسمرا في مكانه كأن الشلل أصابه وفي عينيه ارتسم الألم، ووقف الكل مذهولا بما رأته عيناه، وانفجروا ضاحكين أمام المشهد، وعندما أحسّ العلمي بالخزي فلم يجد أمامه إلا أقرب فتى إليه، فصبّ فيه ثورة غضبه، وضربه بقسوة، ثم قاد الكلب إلى البيت وهو يشعر بمرارة الهزيمة لأول مرة في حياته، ولم يهضم سلوك روميو الذي خذله، فحتى ولو كان مريضا أو مرهقا، لماذا يتخلى عن واجبه ويجعل من صاحبه الوفي مسخرة أمام الناس، لقد رأى العلمي أن روميو أخطأ الخطأ القاتل وسيكون الجزاء من جنس العمل.

نسي العلمي صيد يومه، وقرر تصفية الحساب مع رفيقه الذي خذله، كانت شلة الشبّان ملتفة عند بيت العلمي ولم يستطع أحد التفوه بكلمة، وهم يرون رجل العلمي تضغط على طرف روميو وتكبله، وكان يضربه بقسوة لا نظير لها، وتحوّل نباح الكلب إلى ما يشبه البكاء، ولما لم يشف غليل العلمي ذلك التعذيب، أخرج من جيبه السكين الذي يستعمله في ذبح اليرابيع، فاعتقد الجميع أنه بصدد ذبح الكلب، غير أنه اتجه بالسكين إلى ذيله فقطعه بكل قسوة، وعندها كان بكاء الكلب يمزّق القلوب، وأحدث له ذلك البتر نزيفا حادا، فبقي

الكلب في مكانه دون حركة، ثم مات بعد ساعات من ذلك.

كان العلمي ساعتها في قمة فتوته وجبروته، واعتقد أكثر الناس بأن قوته تلك في تزايد وأنه سيصبح خطرا على الجميع لكن الأيام فعلت فيه فعلتها وتحوّل الفتي المتجبّر إلى نقيضه التام.

عندما ذهب الفتى إلى النوم، بقي صوت الكلب مقطوع الذنب يجلجل في أذنه، وما إن أخذته سنة من نوع بعد معاناة طويلة مع الأرق، حتى رأى الدماء تسيل وسمع الكلب يبكي مثلما يبكي الرجال، فنهض مفزوعا وأحس بزلزال يقوّض كيانه بالكامل، ولم يعد العلمي قادرا على النوم بعد ذلك، فما إن يهم بذلك حتى ينهض مفزوعا باكيا.

أصبح اللون الأحمر يثير العلمي، وعندما يراه في أي شيء يصيح في الناس بأعلى صوته «الدم.. الدم»، وأصيب بحالة أرق مستمرة، وتأزمت حالته أكثر فأكثر مع مرور كل يوم، ووصل به الأمر إلى تمزيق ثيابه وأصبح يمشي عاريا كما يوم ولدته أمه أمام مرأى جميع الناس، وعندما يحاول بعضهم ستر عورته لا يتركهم يفعلون، وقد ضرب أحدهم بالعصا على رأسه فأدخله في غيبوبة وسال منه الدم بغزارة حتى كاد يفقد حياته جراء محاولته تلك، وأصبح العلمي بالفعل يشكّل خطرا حقيقيا على أمن الناس وراحتهم، وظل الفتى يمشي عاريا تماما ويحمل السكين الذي قطع به ذنب الكلب روميو، فخشي كل واحد على نفسه من أن يكون ضحيته المقبلة.

وأصبح مظهر العلمي العاري تماما حديث الجميع في قرية عين المعقال، فبعض الناس كان يضحك بقوة لمشهده ذاك، واعتبره البعض نذير شؤم عليهم، واحتار الجميع كيف يعالجون الأمر؟،

وتدهـور حـال الفتى يوما بعد آخـر، فأصبح كلامـه مضطربا، يضحك لغير سـبب ويصيـح عندما يرى اللـون الأحمر ثم يجـري وراء الناس حاملا خنجره بيده، مما يحدث الرعب في القرية كل حين.

عند ذلـك الحد، اجتمع كبار القرية وكلّفوا مجموعة من الشـبان الأقويـاء بالهجوم عليه دفعة واحدة ونزع السـكين من يـده، ثم تكبيله بسلسلة حديدية. وبالفعل اجتمع أقوى شباب القرية يتربصون بالعلمي في كل حين، وما إن غفل حتى همّوا به فسـتر بعضهم جسـده العاري ببرنوس قديم وانتزعوا منه السكين وكبلوه بالحديد كما أمروا، وعندما أخذوه إلى كبار القوم قرروا الذهاب به إلى أحد العرّافين المشـهورين لعل الله يبعث فيه الشفاء على يده.

لم يشـف العلمـي على يد ذلـك العـرّاف مثلما تمنـى كبار أهل قريـة عين المعقال، وبقـي على حاله، وتنقل بيـن العرّافين زمنا طويلا دون أن يشـفى من محنته تلك.. يكبل بالحديد ويتعرض للضرب مدة طويلة، فيصيح.. يبكي، ويسـل من جسـمه دم غزير، وعندما يرى دمه يتذكـر دم رفيقه روميو الذي قتله، فيثور ويحاول أن يكسّـر السلاسـل الحديديـة، وعندما تخونه قوته يسـقط مغشـيا عليه ليعيـش في غيبوبة مدة تطول وتقصر في كل مرة.

في بعـض فترات هدوئـه القليلة التـي تجتاح العلمـي، تقدّم منه أحد المريدين وهو شـيخ طاعن في السـن، فأحس الفتى بالراحة معه واطمأن للجلوس إليه، وأخذ العلمي يسمع والشيخ يتكلم:

مهما بلغـت ذنوب المـرء يا ولدي فـإن رحمة الله وسـعت كل شـيء، طهّـر قلبك بنـور الإيمـان، وتوضأ من دنسـك وصـل لله رب العالمين.

عندما توضأ العلمي وفقا لوصية الشيخ وتعلّم كيف يصلي، شعر بشيء جديد يجتاح حياته ويغيّرها بشكل محسوس، وسرعان ما أصبح يواظب على الصلاة، وحفظ سورة الفاتحة وسورة الإخلاص ليقرأهما في صلواته، وساعده الشيخ في ذلك.

وبقي العلمي مدة عند العرّاف إلى أن لاحظ تحسنا في حالته فأطلق سراحه، وكانت وجهته الجديدة مسجد قرية عين المعقال يقضي فيه كل وقته تقريبا، وهناك أصبح من المواظبين على الصلاة في كل أوقاتها، ووهب العلمي نفسه لخدمة المسجد وأصبح قيّما عليه، وسمحوا له بالمبيت فيه، وأخذت حالته الصحية بالتحسن يوما بعد آخر، وكان يحب الجلوس عند حلقة المقرئين الذين يكرّرون القرآن يوميا وما يحفظون من أدعية ومدائح للرسول، ولئن كان لا يعرف ما يقولون فإنه يبكي كثيرا عندما يكون وسط ذلك الطقس اليومي.

كان العلمي يقضي أيامه ولياليه في مسجد القرية، وذات ليلة شتاء باردة، أخذ فيها الثلج بالتساقط منذ المساء، سهر قليلا مع كانون الفحم، وبعد أن أخرج الكانون خوفا من حدوث اختناق، استغفر ربه كثيرا واستسلم للنوم، ولا يدري إن كان ما حدث له بعد ذلك ثم في اليقظة أم في الحلم، فقد شعر فجأة بنور متوهج لم يره في حياته، وفجأة اجتاح النور المكان وأضاء المسجد كله، وعندما قام العلمي مفزوعا وهو مبهور بذلك النور، قال والدهشة تملؤه دون أن يقوى على الجهر بصوته:

من أنت؟

- ألا تعرفني يا العلمي؟، أنا خير البشر أجمعين.

- هل أنت رسو...

ولم يقو على إكمال ما أراد قوله، فقد أمره الجسم النوراني وهو لم يكمل حديثه بفتح فمه ففعل عل الفور، وأشار الزائر بيده إلى الفم المفتـوح ثم قال: «لقد مـلأت جوفك بكلام الله»، ولـم يفهم العلمي شـيئا مما قيل لـه، وعندما حاول الاستفسـار، واصل صاحب الجسـم النوراني كلامه قائلا:

– سـتقوم برحلتين، عليـك بالأولى هذا الصبـاح.. فلتذهب إلى تمبوكتو.

ولـم يوّضح صاحب الجسـم النورانـي كلامه وقد غـادر المكان فجأة وترك العلمي فريسة لأسئلته التي لم تجد من يجيبه عنها.

نهـض العلمي فجأة مفزوعا، ولم يجد أمامه إلا ظلام المسـجد، وعندما هبّ خارجا، وجد الثلج يغطي القشرة الأرضية لمحيط القرية، ومع شـعوره بالبرد، حاول العلمي أن يستعيد ما جرى له في الحلم أم في الواقع، لا يدري بالضبط، أراد اسـتعادة القليل مما كان يحفظه من القرآن لكـن مفاجأته كانت كبيرة بحيث لا يسـتوعبها عقله، فقد وجد أنـه يحفظ المزيـد والمزيد مـن القرآن ممـا كان يجهله تماما، وشـعر برغبة في الطيران من شـدة الفرح، وهـو يفكر في أنه حفظ القرآن عن ظهر قلب تماما مثلما كان يسمعه من أفواه المقرئين، لكنه لم يستوعب الأمر بشكل جيد بعد، فقد كان أقوى مما يتصوره عقله.

لـم يبالـي العلمي ببـرودة الجو، فنهـض وتوضأ ثـم جلس يرتل القرآن من أوله، وعندما اقتـرب وقت صلاة الفجر، كان الإمام كعادته أول مقبلين، وقبل أن يدخل المسـجد سمع صوتا يرتل القرآن بطريقة عجيبـة مدهشـة، فذهب ظنه إلـى أن صاحب الصوت ما هـو إلا عابر سـبيل يكون العلمي قـد فتح له الباب حتـى يقضي ليلتـه الباردة تلك

فـي المسـجد، ولم يكن يتصـور أن ثمـة مفاجأة فـي انتظـاره، فلم ير الشـيخ في باحة المسجد إلا العلمي والشمعة المشـتعلة شاهدة عليه، وكان الإمام ينظر ولا يصدق عينيه، وبعد صمت طويل راح يسأل عن السـر في ما يرى، وكان العلمي ينتظر أول من يخبره بما حصل له في تلك الليلة المشـهودة بكل التفاصيل حتى يتقاسـم فرحته ودهشته مع الآخرين، وبعد أن سرد ما وقع له ذهب وأذّن في الناس لصلاة الفجر بصوت لم يسمعوا أعذب منه.

ومع الثلج والبرد، أقبل نفـر قليل من الناس المواظبين على أداء صلاة الفجر في المسـجد، وعند الانتهاء من الصلاة، توجه الإمام إلى الجماعـة، وهـو يتكلم بدهشـة غير مألوفة عنـه، عن تلـك البركة التي حدثت، ولما توقف الإمام عن الكلام، أخذ العلمي زمام الكلمة وهو يتحدث عن مدينة تمبكتو التي أمر بالسفر إليها:

لقد قررت السفر فورا إلى هناك.

- لا تتسـرع في الأمـر، ولا تنس أننا فـي فصل الشـتاء والطرق مغلقة بفعل تساقط الثلوج، ثم إنك لا تعرف شيئا عن تلك البلدة التي لم نسمع باسمها قبل يومنا هذا الجانب.

وبعد صمت، أردف العلمي قائلا وهو يسأل:

ألا يعرف أحدكم بلدة تمبكتو؟، ألم تسمعوا باسمها من قبل؟

كان العلمـي يسـأل بإلحـاح والأنظار تتجه إلى سـي قـدور أكثر أهـل القريـة اطلاعـا، فقد حفظ شـطرا كبيـرا من القـرآن، ثـم أجبرته الظـروف على السـفر ولـم يختـم الكتاب كمـا كان يتمنـى، فأخذ في سفراته المتنوعة العلم من أفواه العلماء مباشرة، وقد قابلهم في مدنهم البعيـدة، فكان يخجل من طرح السـؤال وبالمقابـل كان قوي الذاكرة،

فيستفيد من أسئلة الآخرين، وعندما أدرك سي قدور بأنه المعني بالسؤال طأطأ رأسه ثم أخذ يتكلم بما يشبه الهمس: «سمعت عن تلك المدينة»، وبعد صمت أضاف قائلا:

قرأت اسمها في أحد الكتب، فأثارني الاسم وأردت معرفة المزيد عنها، وبعدها سمعت بأنها مدينة عريقة في العلم، أبلى أهلها البلاء الحسن في نشر الدين في إفريقيا كلها، وعلى ما أذكر فقد سمعت بأنها تقع ما بين نهر النيجر ونهر السنغال في بلاد الزنوج في الصحراء الكبرى، وكانت في القديم قطبا تجاريا هاما، واشتهرت على مرّ السنين بتجارة العبيد والذهب، وإضافة إلي ذلك فهي حاضرة من حواضر العلم الكبرى تشتهر بجامعة سنقر، ومن أقطابها العالم الجليل أحمد بابا التمبكتي وغيره كثير.

وعند ذلك الحد سكت سي قدور، لكن النقاش تواصل، فأضاف الإمام قائلا: «إنها بشارة خير إن شاء الله، إني أرى العلمي وهو في طريق العلم، وقد هيأ له الله كل أسباب السفر إلى تمبكتو، ليعود إلينا عالما جليلا ينفع البلاد والعباد، أرى أن يتوكل على الله في أقرب وقت، وله منّا الدعوة في كل صلاة إلى أن يحل موعد عودته الميمونة».

وقبل رحيل العلمي، كان لا بد من أداء واجب، فقد زار أمه في بيت زوجها، وهو لا يفعل ذلك إلا نادرا بسبب عداوته لزوجها الذي حرّم عليه زيارتها وحرّم عليها رؤيته، فمن المؤكد أن الزوج تسوّق اليوم مثلما يفعل كل يوم سبت رغم برودة الجو.

وبسرعة ذهب العلمي إلى أمه في بيتها، ولم تصدّق ما رأته، فضمها إلى صدره وقبّلها في رأسها قبل أن يغلبهما البكاء، كان مثل

الطفل الصغير في صدرها وكانت تبكي وتقول:

كيف حالك يا بني؟ سمعت بأنك مريض، هل شفيت؟

- لا تقلقي يا أمي، إنها زكاة نفس، ليس أكثر.

- أرى يا ولـدي بأنك عقلت كثيرا، أدعو الله أن يوفقك في دنيا وآخرة.

- هذا الذي جئت من أجله، أنا على وشك السفر يا أمي، ادعي لي في صلاتك.

- يدعو لك من يقبل الله دعاءه، لقد دعوت لك قبل اليوم كثيرا، وليوفقك الله فيما أنت عازم عليه.

كان الوقـت يجري بسـرعة، وعندمـا أدرك العلمـي ذلك، حمل الثياب القليلـة التي يمتلكها وبعـض التين المجفف والتمر وسـار في طريق قاده إليه حدسه.

كان الجـو باردا، غيـر أن العلمي لم يشـعر بذلك، وبقي يمشـي ويتسـاءل معه نفسـه، كيف هي تمبكتو هذه؟، وكيف السبيل للوصول إليهـا؟، ومـا شـكل سـاكنيها؟ وكانت تلـك الأسـئلة دافعه الأساسـي للإصرار على مواصلة الطريق مهما كانت خطورته.

يسـير العلمي طويـلا، وفي أحيـان قليلة كان يلتفـت خلفه، وهو يفكر فـي موطنه قرية عيـن المعقال التي لـم يغادرها يومـا في حياته، وأمه المسـكينة التي تركها في بيت زوج جبّار لا شـفقة ولا رحمة في قلبـه، ومع كل التفاتة يرى العلمي أن القرية تختفي شـيئا فشـيئا، ومع اختفائها يزدادا إصرارا على بلوغ المدينة الحلم التي لم يسمع باسمها قبل ما حدث لـه في ليلته السـابقة، وكان الطريق الريفي الذي سـلكه طويلا فارغا موحشا في البداية إلا أنه مع التقدم في السير لمح أشباحا

تتحرك، وعندما اقترب منها، وجد رجلا يرتدي ملابس زرقاء ويمسك بثلاث من النوق، قال العلمي في نفسه أن الرجل هو من التوارق الذين يسكنون الصحراء البعيدة، فما الذي أتى به إلى ذلك المكان؟

- السلام عليك أيها الرجل، هل من مساعدة أقدّمها لك؟

- كنت في انتظارك يا العلمي، وأنا متأكد بأنك ستأتي في الوقت المناسب.

- ومن أنت، وكيف عرفتني؟

- أنا عبد الله.. عبد الله وكفى.

ذهل العلمي لما رأى وسمع، وأراد الاستفسار، غير أن الرجل الأزرق منعه من ذلك وقال: «هذه الراحلة لك، وهذه لي والأخرى لحمل متاع السفر»، وعندها ركب العلمي الراحلة التي كانت تنتظره وانطلق الرجلان صوب مدينة تمبكتو، التي يبدو أن الرجل الأزرق يعرف طريقها جيدا.

وكانت الراحلة الثالثة تحمل أصناف متنوعة من المأكولات الشهية، وعند كل استراحة كان العلمي وعبد الله يأكلان مما تحمل، ثم يقوم الأخير بإشعال النار لتهيئة الشاي على الطريقة الصحراوية المعروفة، وفي أثناء ذلك كان العلمي يلّح على عبد الله في السؤال، ويطلب منه أن يعرّفه على شخصيته الغامضة، غير أن الأخير لم يكن يتكلم إطلاقا وكأنه لا يسمع شيئا من أسئلة العلمي الملّحة، ولحد تلك الساعة لا يعرف العلمي عن رفيقه ودليله في السفر سوى عبد الله، الذي لا يدري إن كان اسما أو كنية.

توقّع العلمي أن يمر بمدن عديدة، كلمه عنها سي قدور، غير أنه لم ير واحدة منها، وعندما يشعر بالقلق يتسرب إليه من طول الطريق

والصمت، يقرأ القرآن ويستعين بذكر الله، ويتخيّل مدينة تمبكتو التي سيدخلها قريبا.

ومرت الأيام الطويلة، والعلمي في طريقه إلى تمبكتو، وكان طيلة أيامه تلك يعجب للأكل الذي يتجدد طعمه، وللماء الذي تحمله الراحلة وقد بقي عذبا ولم تنقص كمية إطلاقا هو الآخر، وبقي السؤال الكبير في ذهن العلمي: متى سيصل إلى مدينة تمبكتو؟، وأحس بالمسافة تطول أكثر من اللازم، وبدأت قرية عين المعقال التي غادرها تبدو في ذهنه كالحلم البعيد، وكان يقول أنه ربما لن يعود إليها وما طريقه ذاك إلا إلى وجهة غير محددة وسيبقى سائرا في ذلك الطريق حتى الموت.

كان الصمت يسيطر على كل شيء، حتى نسي العلم الكلام أو كاد، لكنه وفجأة التقط سمعه كلمة تفوه بها دليله عبد الله، واعتقد في البداية أن الأمر مجرد هاجس بعد أن يئس من الحديث إليه، غير أن الرجل كرّر كلمته قائلا: «استعد يا العلمي»، ثم أضاف: «نحن على مشارف تمبكتو مدينة العلم والصالحين».

وكاد العلمي يسقط من الراحلة فرحا، وبدأ يفكر أكثر في تلك المدينة الموعودة، وأول ما لمحه من معالمها أنها عتيقة بالفعل، وهي تتشكل شيئا فشيئا في عينيه، ومع المشهد المتشكل رأى العلمي حشود الناس تهتف باسمه، وتنشد كلمات محلية لم يفهم منها شيئا، لكنه بحدسه قرأ الفرحة فيها، وكان أعيان المدينة في مقدمة الصفوف ووسط ذلك المشهد كله، وقف العلمي على الحد الفاصل بين الحقيقة والحلم.

الأعيان الذين تقدموا الصفوف كانوا يرحبون على طريقتهم

بوصـول العلمي إلى مدينتهـم، ووفق كبيرهم فـي المقدمة وهو يتكلم بلغة عربية غريبة بعض الشـيء: «أهلا بضيفنا المنتظر»، وعندما شـعر العلمـي برغبـة فـي التحـدث، طلبـوا منـه السـكوت، وألا يتكلم قبل انقضـاء أيام الضيافـة المعروفة، وأخذ على الفور إلـى غرفة مخصصة للضيـوف، ووضع تحـت تصرفه خدم يقدمـون له ما يشـاء من الأكل الشـهي وكل مـا طاب لـه، وقضـى أيامه يصلـي جمع تقصيـر ويتمتع بالأكل اللذيذ ويجلس لقراءة القرآن وحيدا.

وعندما مرت ثلاثة أيام مـن الذهاب به إلى غرفة الضيوف تلك، رأى العلمـي كبـار أعيـان تمبكتو الذيـن اسـتقبلوه عند وصولـه إليها يدخلون غرفته تلك ويتقدمون نحوه، وقال كبيرهم:

هل استرحت الآن؟

– أشـكركم على هذا الكرم الذي لم أكن أحلم بمثله، أعتقد بأن أيـام الضيافة قد انتهت، لقد أردت أن أسـألكم السـؤال الذي حيّرني، سـمعتكم تقولون عند قدومي: «أهلا بضيفنا المنتظر»، كل الذي رأيته منذ مجيئي إلـى تمبكتو يدل على أنكم انتظرتموني بالفعل، فما السـر في الأمر يا ترى؟

خيّم صمت مفاجئ على المكان، وبقى الشيوخ بلا حركة، وكان الجميع ينتظر كبير الأعيان ليبـدأ الحديث الذي يعرفه جميعهم، وكان الشـيخ يطأطئ رأسـه كأنه يسـتجمع أفـكاره أو كأنه يجـد صعوبة في كيفية البدء في الكلام، لكنه تكلم في النهاية وقال:

– هـي الأمانة ويجـب أن نبلّغها، لقـد جاءني سـيدي أحمد بابا التمبكتي وأنا قائم أتهجّد في المحراب، وقال لي: ابعث بشخص إلى هناك، وأشار إلى جهة الشمال، وأضاف: وسوف يأتي بالعلمي، عليكم

برعايته وتلقينه جميع ما ورثتموه عني من نفائس، وعندما سألته عن مكانك، قال إن الشيخ الذي يذهب إليه سيهديه الله إلى المكان دون أن يسأل، وأنه سوف يتعرف عليك يا العلمي فور رؤيتك.

بقي العلمي صامتا وهو ينتظر المزيد من كلام كبير أعيان تمبكتو، ولما لم يضف الشيخ قولا سأل:

ومن هو سيدي أحمد بابا التمبكتي؟

هو قطب الأقطاب، وأحد كبار علماء هذه الأمة على الإطلاق، كان بحرا من العلوم والمعارف وقد بعثه الله نورا مجددا لهذا الدين، نفع الله المسلمين بعلمه وترك كنوزا في بطون الكتب تنير دروب المسلمين في كل عصر ومصر، وهو أحد أقطاب مذهب الإمام مالك بن انس رضي الله عنه، ولد بأروان في شهر ذي الحجة من القرن العاشر الهجري ونشأ في أسرة علم وصلاح وهيّأه الله منذ طفولته الأولى لحمل راية الدين، فقرأ كل علوم عصره وتعرّض لمحن كثيرة لو تعرّض لها الجبل لخرّ ساجدا، سجن في مراكش ثم أفرج عنه السلطان أحمد المنصور بالله السعدي وحدد إقامته بمدينة مراكش، وقد ألقى هناك دروسا وأفاد الأمة من علمه الغزير، ولما مات السلطان المنصور بالله، عاد سيدنا إلى تمبكتو، وقد ترك لنا هذا القطب الكبير ما يربو عن الأربعين مصنّفا في شتى العلوم وعرفه العلماء والدارسون بكتب كثيرة منها «النكت الوفية في شرح الألفية» في النحو، و»نيل الابتهاج بتطريز الديباج» وغيرها كثير، نفعنا الله وكل الأمة بعلمه، آمين.

وبعد ذلك مباشرة، باشر العلمي رحلة تلقي العلوم بتمبكتو، فتعلم أولا الكتابة والقراءة بدءً بالحروف الهجائية، ولما تأكد من

حفظ القرآن بشكل جيد، تلقى مصنفات أحمد بابا التمبكتي مشروحة على يد شيوخ المدينة كل في حلقته، وكان العلمي يحفظ المصنفات عن ظهر قلب ويستعرضها على الشيوخ واحدا واحدا كل حسب تخصصه في الفقه وعلم الكلام والنحو وغيرها من العلوم.

وبقي العلمي في تمبكتو سبع سنين كاملة، حفظ خلالها كل مصنفات أحمد بابا التمبكتي بشروحها وحواشيها، وعندما أتم حفظ كل ذلك،كان ذلك اليوم بمثابة العرس في المدينة، وأقام أهلها مأدبة كبيرة، جمع فيها طلاّب الجامع الأموال من الأعيان، وأكل كل من كان في المدينة منها، وألقى خلالها كبير شيوخ المدينة كلمة ذكّر فيها بمناقب العالم أحمد بابا التمبكتي، وكيف أن آثاره العلمية بقيت خالدة، وأن الله وفّقهم لتأدية الأمانة الجليلة التي وضعها في أعناقهم.

وشعر العلمي أن وقته في تمبكتو أصبح محدودا، وقد أنهى المهمة التي تغرّب من أجلها سبع سنين بنجاح كبير، وقف في مجلس أعيان المدينة وودعهم واحدا واحدا، وشكرهم على حسن الضيافة وتحملهم لوجوده سبع سنوات كاملة، وكانوا يقولون له بأن ما فعلوه معه ليس سوى الواجب، وأنهم مهما فعلوا فلن يرتقوا إلى مستوى الأمانة الكبرى التي علّقها الشيخ أحمد بابا التمبكتي على أعناقهم.

ولم يمر وقت طويل حتى رأى العلمي ذلك الرجل الذي جاء به إلى تمبكتو قبل سبع سنوات، ولم يصدق ما رأته عيناه، إنه هو هو، بالملامح نفسها والهيئة نفسها، ولم يتغيّر إطلاقا، ولم يتقدم في السن كأنه قد رآه قبل ساعة فقط، وتذكر اسم عبد الله الذي عرفه به لأول مرة.

وقف عبد الله غير بعيد عن مجلس الأعيان وبجانبه راحلات ثلاث، كعهده الأول، وأشار بيده إلى واحدة من الراحلات دون أن يتكلم، فركب العلمي دون تردد والدموع تسيل منه بغزارة، ووقف نفر كبير من سكان القرية وعلى رأسهم أعيان المدينة لتوديعه، واحتبست الكلمات في حلقه كالغصة وهو يشير بيده أن الوداع.

وانطلقت الراحلات الثلاث نوع الشمال وعليها العلمي وعبد الله ومتاعهما وزاد الطريق، وبدأت تلك الرحلة الطويلة من أجل العودة إلى قرية عين المعقال التي غادرها العلمي قبل سنين، وشيئا فشيئا بدأ العلمي يستعيد قريته كالحلم البعيد دون أن يستطيع استجماع صورتها كاملة، وأصبحت القرية وأهلها محور تفكيره بعد أن كادت تغيب عن باله طيلة السنوات الماضية وكان منهمكا في تحصيل العلوم في تلك المدينة البعيدة، وسرعان ما سيطرت على خياله صورة الأم المسكينة التي تركها والدمع يحرق خديها، وكانت تلك الصورة التي لم تعد تفارق خياله تؤلمه وتعكّر عليه راحته.

سار الموكب أياما طويلة مثلما فعل قبل سنين، وأخيرا وصل إلى المكان الذي رأى فيه العلمي، عبد الله براحلاته لأول مرة، وعندها أمر عبد الله الراحلات بالتوقف، وكان العلمي ساعتها في منزلة بين الفرح الكبير والحزن الشديد، ومع ارتباكه لم يقو إلا على معانقة عبد الله وهو ينفجر باكيا، ثم ودعه وانطلق ماشيا مثلما جاء لأول مرة، وأسرع العلمي في خطاه وشوقه للقرية وأهلها يكاد يقتله، ولم يصدّق عندما بدأت ملامح عين المعقال تتشكل شيئا فشيئا في عينيه وامتزج في قلبه الفرح والشوق وكاد يسقط في مشيته أكثر من مرة.

ودخل العلمي القرية مثلما خرج منها لأول مرة، وفي غفلة من

أهلهـا اتجه مباشـرة إلى المسـجد حيث وجـد الجماعة تكـرر القرآن مثلمـا تفعل بعد صلاة كل عصـر في حلقة مصغّـرة، ودون تردد انظم إلى الحلقـة وانخرط مع من كان هناك في القـراءة، وعند انتهائهم من الـورد اليومي، أقبل العلمي على إمام المسـجد وقبّله في كتبه ثم على رأسه وسط أجواء من الفرحة منقطعة النظير.

ولـم يمـر وقت طويل حتى التفّت الجموع على العلمي يسـألونه عن أحواله وتفاصيل رحلته الطويلة، وبدأ العلمي في الكلام واسترسل فيه حتى اقترب موعـد أذان المغرب، وانتظر الصـلاة التي أدّاها هناك مـع الجماعة، وبعدهـا تقدم العلمي من سـي قـدور الذي يرتـاح إليه كثيرا وسـأله عن حال أمـه التي تركها قبل سـنين في بيـت زوج جبّار لا يرحم، ولم يقو سـي قدور في البداية على الكلام، لكنه تغلب على تردده بعد ذلك وأخبره بالحقيقة التي يعلمها:

لن أوصيك يا سي العلمي بالصبر، فأنت الأعلم بمزاياه والأقدر على تحمله، فمـا إن غادرت قريتنا حتى سـقطت أمك مريضة، ويبدو أن سـفرك أثّر عليها كثيرا، فكانت تبكي ليلا ونهارا حتى ذهب بصرها وبقيـت طريحة الفراش لا تقوى على الحركة لسـنوات عديدة، وطول تلـك المحنة لم يكن على لسـانها بعد ذكر الله ورسـوله إلا اسـمك، وقد أشـبعتك دعاء وتوفّاها الله قبل حوالي سـنتين من الآن.. رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه.

بقـي العلمي يغالب الدموع، في باحة المسـجد حزنا على رحيل أمه في غيابه، ونسـي الكثير تعزيته بعد مرور تلـك المدة على وفاتها، واضطر لروايـة ذكرياته للوافديـن، وإخبارهم بالعلوم التـي تلقّاها من بطون الكتب في مدينة تمبكتو البعيدة، وفي كل مرة كان يعيد الجواب

على الأسئلة المكررة، وأحيانا يعيد من تلقاء نفسه بعض ما سبق قوله تعميما للفائدة، وأسرع بعضهم وجاء بالطعام إلى المسجد، وأصبح الأمر وليمة على غير موعد، وشعر العلمي بالغبطة والسرور وهو يرى ذلك الاحتفاء الكبير والناس يلتفون حوله بذلك الشكل الذي لم يتوقعه، لكنه سرعان ما يتذكر أمه فيتمزق قلبه ألما ويحاول التغلّب على حزنه بالجواب على أسلة الناس الوافدين.

ومرّ الوقت بسرعة كبيرة، وصعد المؤذن إلى المئذنة ونادى لصلاة العشاء، فرفعت الصحون بسرعة وتهيأ الناس للصلاة، وعند تمامها أمر الإمام الناس بترك سي العلمي يستريح في المقصورة، فهو متعب بلا شك، وقال إن على من يريد رؤيته المجيء بعد صلاة الصبح، وبقي سي العلمي في المقصورة رفقة الإمام بعض الوقت، لكن العلمي استأذن وطلب الذهاب إلى المقبرة في ذلك الوقت المتأخر ليرى قبر أمه.

تردد الإمام في الذهاب ثم اضطر إلى ذلك تحت إلحاح سي العلمي، فذهبا معا على الفور، وعندما وقفا عند القبر، طلب سي العلمي من الإمام أن يتركه قليلا مع أمه ليقرأ عندها شيئا من القرآن ويدعو لها بالرحمة والمغفرة، فعاد الإمام إلى المسجد وترك سي العلمي هناك، وشرع الأخير في القراءة، وبعد مرور وقت لم ينتبه إن كان طويلا أم قصير على جلوسه هناك، أحسّ بنور يضيء المكان من حوله، وخطر له أولا أن النهار يوشك على الطلوع، وسرعان ما تذكّر أن موعده مازال بعيدا.

كان النور ساطعا، فبقي العلمي بين الرهبة والدهشة، وهو يجوب ببصره ليعرف مصدر ذلك الشعاع، والتفت إلى يمينه أولا، وسرعان

ما تكلم مندهشا:

سيدي...

ولم يستطع إكمال ما ودّ قوله، وبقي النور الساطع الواقف على يمينه ثابتا، وبينما سي العلمي جامد في مكانه، لا يقوى على فعل أي شيء، سمع من مصدر ذلك النور كلاما:

لم تكمل مهمتك بعد.

- لقد فعلت ما أمرتني به يا سيدي، وقد سافرت إلى تمبكتو لتحصيل العلم ولم أعد من رحلتي الطويلة تلك إلا قبل قليل.

- ألم تسمع قولي كاملا؟، أمرتك بالقيام برحلتين، وقد أتممت الأولى، فاستعد للثانية.

- إلى أين رحلتي القادمة يا سيدي؟، وهل هي أطول من الأولى؟

- هي مختلفة عنها، سوف تمتطي صهوة البراق، وستذهب إلى مدينة نيسابور، فالزمن سيتمدد، وعندما تعود من رحلتك هذه ستعرف بأن الوقت لم يتقدم إطلاقا.

تتبع سي العلمي الإشارة، فوجد طائر البراق جالسا غير بعيد، ينتظر من يركبه، فتقدم فورا وركب، ثم طار الطائر باتجاه مشرق الشمس.

وفي لمح من البصر انتقل سي العلمي من بلاد إلى بلاد أخرى، ووجد نفسه في مدينة غريبة لا يعرف عنها شيئا، فسار في شوارعها، واندهش لاتساعها ونظافتها، وسار والفضول يقوده إلى أن وصل إلى جامع المدينة الكبير، وعندما دخل إليه، وجد طلبة يقرؤون القرآن وعلومه في حلقة موسعة، ورأى أحدهم يعرّف الطلبة الوافدين

بتاريخها وعراقتها، وكان يقول لهم في تقديمه:

«.. وذكرها الرحّالة محمد بن عبد الله بن بطّوطة صاحب كتاب تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف برحلة ابن بطّوطة قائلا: هي إحدى المدن الأربع التي هي قواعد خراسان، ويقال لها: دمشق الصغيرة، لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها، وتخترقها أربعة من الأنهار، وأسواقها حسنة متسعة ومسجدها بديع، وهو في وسط السوق، ويليه أربع من المدارس يجري بها الماء الغزير، وفيها من الطلبة خلق كثير يقرؤون القرآن والفقه وهي من حسان تلك المدارس».

وبينما سي العلمي منخرط في سماع ما يقوله ذلك المعلم، أقبل عليه رجل وضمّه إلى صدره وقال: «أنا في خدمتك، اسمي ميرزا.. مرحبا بك ضيفا عندنا، وهلم معي لنكرمك».

ودون أن ينتبه وجد سي العلمي نفسه يسير مع مضيفه ميرزا ويدخل به غرفة، وعندما جلسا قليلا جاءهم غلام بمأكولات لم يذق سي العلمي ألذ منها، ولما شبع من ذلك الطعام اللذيذ استراح قليلا قبل أن يسأل ميرزا ويطلب منه معرفة المزيد عن تلك المدينة:

- نيسابور يا سيدي تقع في بلاد فارس، وهي قريبة من مدينة مشهد، وقد فتحها الأحنف بن قيس، ثم عاود فتحها عبد الله بن عامر، والمدينة اشتهرت منذ القدم بموقعها الجغرافي المتميّز، وقد أصبحت عاصمة لدولة السلاجقة بدءا من القرن الخامس الهجري ثم عاصمة للدولة الطاهرية بعد ذلك.

تعرضت لنكبة كبرى في القرن السابع الهجري، إذ داهمتها الجيوش المغولية، لكنها عادت إلى الحياة من جديد وأصابها

عمـران كثيـر وازدهار كبير، وقـد أنجبت نيسـابور الكثير مـن الأعلام لعل أشـهرهم أبو إسـحاق الثعلبـي المفسّـر المعروف والإمام مسـلم بن حجاج صاحب صحيح مسـلم المعتمد عند أهل السـنة، والشـاعر والرياضي العظيم عمر الخيّام، وتلك هي مدينة نيسابور يا سيدي التي انتظرت قدومك منذ أمد، والحمد لله قد شرّفتنا بمجيئك.

– وكيف انتظرتموني؟، هل كنتم تعرفوني من قبل؟

– لا تسـأل كثيـر، وهيا بنـا فإني أريـد الذهاب معـك إلى مكان مهّم.. هيا أسرع.

وامسك ميرزا بيد العلمي، ثم سار به، وكان العلمي بين الدهشة والفضول، ومشـى الرجلان حتى اعتقد العلمي أم ميرزا سـيأخذه إلى خـارج المدينة، لكنهما عندما وصلا إلى مكان مليء بالأشـجار، اتجه به نحـو صخرة كبيرة، ثـم طلب منه مسـاعدته في رفعها مـن مكانها، وعندمـا فعـلا انكشـف لهما كهف مضـيء، دخـل إليه ميـرزا أولا ثم طلـب مـن ضيفـه أن يفعل مثلـه، ولمـا دخلا سـار بـه، وكان العلمي يرى باندهـاش بعض الحرس يقفـون في مناطق مختلفـة من الكهف، ولم يتوقف ميرزا وضيفه عن السير إلا عندما وصلا إلى شـيخ طويل اللحيـة، ولمـا وقفا عند رأسـه، أمر ميـرزا العلمي بتقبيـل كتفه ففعل، وعندها رفع الشيخ رأسه ثم قال:

أهلا بالشيخ العلمي.

وأضـاف بعـد صمـت عبـارة مبهمـة «هـل أنـت مسـتعد لحمل الأمانة؟»، ولما بقي العلمي مذهولا من السؤال الذي لم يعرف فحواه، أشـار ميرزا إليه بأن يجيبه بالإيجـاب، ففعل وبدأ الشـيخ الجالس في الحديث:

اسمع يا ولدي، الكلام الذي ستحفظه، لو وضع على جبل لانهار، ولو وضع على بحر لجف ماؤه بكاء، فهو كتاب السر الكبير، سر الأسرار.. لكنني قبل أن أمليه عليك لتحفظه، لا بد من معرفة كاتبه وقصة كتابته.

الكتاب هو «كلام الكلام» لصاحبه الشيخ الجليل والعلّامة الكبير والنسك الطاهر والشريف المقتدر الحبر البحر الثقة الهمام الكامل شيخنا أبو الخليل الحيروني، نفع الله الأمة بعلمه الغزير وخيره الوفير بجاه سيدنا محمد وآله.. آمين.

وشيخنا الفاضل، عاش ما لم يعشه بشر قبله ولا بعده، وقد مدّد الله في عمره إلى أن تجاوز السبعمائة عام، وتلك من البركات والكرامات النادرة الحدوث، وشهد موقعة صفين والفتنة الكبرى في عام ثمانية وثلاثين لهجرة النبي، ولما كان قلبه يتمزق لتلك الفتنة وحال المسلمين، فقد اعتزل الناس ولم يبايع هذا ضد ذاك، وكان من حملة القرآن الكريم، واختفى عن أعين الناس بعد ذلك ولم يظهر له أثر إلى ما شاء الله.

ولجأ الشيخ أبو الخليل بعد اختفائه إلى خلوة في جبل معزول عن الناس، لا يمرّ به أحد، وكان هناك يعبد الله ويشرب من نبع تدفّق بأمر الله، ويأكل من شجرة ذات فاكهة ناضجة في كل أيام السنة دون استثناء، ولم ير الشيخ بشرا طول مدة خلوته الطويلة، وبقي هناك يصلّي ويصوم الدهر مدة ثلاثمائة سنة متواصلة وكان خلالها يجلس الساعات الطوال يتأمل في ملكوت الله.

ولما دخلت المائة الرابعة على خلوته، أراد أن يدوّن كتابا فيه من أسرار هذا الوجود ما يجهله أكثر الناس إلا خاصة الخاصة منهم،

وبقي يدوّن الكتـاب ما يقارب الأربعمائة سـنة كاملة، فكان في بعض الأحيان يبقى سـنوات طويلة في التأمل قبل أن يكتب كلمة أو كلمات قليلة بعد ذلـك، وعندما فرغ من كتابة الكتاب أسـماه «كلام الكلام»، وأدرك بعدهـا ألاّ فائدة مـن كتابته إن لـم يطلّع عليه النـاس، ويهتدوا بهديه، ويكون لهم نبراسا في سبلهم المظلمة.

وخرج الشـيخ أبو الخليل الحيروني من خلوته التي دامت مئات السـنين، وكان ذلك في منتصف القرن السـابع الهجري، وعندما سـار مشـيا على قدميه شـعر بأن الله منحه قـوة على ذلك وكأنه شـاب في العشـرين، ولمـا يلتقي فـي طريقه بأنـاس، كان يسـألهم عـن حاضرة الخلافـة وأيـن أصبحت في ذلـك الزمان، فأرشـدوه إلـى مدينة بغداد التي لـم يكن لها وجود في عهده الأول، ومشـى إليها فـي الليل وفي النهـار وفي جعبته كتاب «كلام الكلام» الذي بقي يؤلفه أربعمائة سـنة كاملـة، وهو يـرى أن الكتاب سـيقلب الدنيا من شـر مطلـق إلى خير مطلق، وكانت الحروب والفتن تملأ الدنيا.

وسـمع الشـيخ بقوم، كانوا يعيشـون فـي فقر وتخلّف واسـتطاع قائد لهم أطلق على نفسـه اسـم «جنكيز خان» أن يوحدهم في أواخر القرن السـادس للهجرة، وأسـمّاهم «المغـول» وكان موطنهم الأصلي في شـمال الصيـن، وأصبـح جنكيز خان الـذي لقبه البعـض فيما بعد بالإمبراطور، واسمه الأصلي «تيموري»، يحقق الانتصار تلو الانتصار في حروبه، وهجم على مدينة بيكين في الصين وأسـقطها، ثم بخارى بوسـط آسـيا فأحرقها وقتـل الآلاف من سـكانها، وواصـل زحفه إلى مدينة سـمرقند وأتى على الدولة الخوارزمية هنـاك، وعند ذلك هرب آخر سـلاطينها جـلال الدين منكوبـدري، لكنه قتل بعـد ذلك على يد

بعض أعدائه.

وبعد مسيرة طويلة وجهد كبير، وصل مولانا أبو الخليل الحيروني إلى بغداد، ووجد الأمر هناك غاية في الخطورة، استولى اليأس على قلوب الناس، واعتقدوا أن القيامة حان موعدها، وشاع بينهم أن المغول هم قوم يأجوج ومأجوج الذين يأتون في آخر الزمان، فتركوا كل مقاومة وخارت قواهم واستسلموا للموت الذي جاءهم زاحفا تحت قيادة القائد المغولي هولاكو.

ولم يجد الخليفة العباسي المستعصم بالله إلا أن يستسلم مثل رعيته للقدر المحتوم، دون مقاومة، ورأى أن حربه مع المغول ستؤول إلى الخسران المبين، وأراد تجنب الحرب بأي وسيلة كانت، وأبلغ قائد الجيوش المغولية أنه لا يرغب في أي نزال، وكان هولاكو، قائد الجيوش المغولية حينها حفيدا للإمبراطور جنكيز خان، مؤسس ذلك الجيش الذي اعتقد الناس أنه لا يقهر، واستمتع بالانتصارات الساحقة التي حققها وأسلافه بسهولة مطلقة.

وفي ذلك الحال، بدأ مولانا أبو الخليل الحيروني يتصل بالناس وينشر بينهم كتاب «كلام الكلام» والأسرار التي تعلّمها وعرفها طيلة قرون خلوته الطويلة، وبدأت بالفعل دعوة أبي الخليل الحيروني تنتشر بين الناس وعندما استفحل خطر المغول، وشعر بالخطر الذي يهدد بغداد وأهلها خرج مولانا في دعوته من السر إلى الجهر.

وكان القائد المغولي هولاكو، يستعين ببعض الجواسيس الذين زرعهم في المدينة التي كان يرى بأنها لن تسقط بسهولة، ولم يكن الخليفة يعلم بأن أخبار بغداد تصل إلى عدوه هولاكو عن طريق الجواسيس المنتشرين في كل مكان، وبالمقابل لم يكن يعلم عن

عدوه شيئا سوى ما يرويه الناس من حكايا هي أقرب إلى الخرافات منها إلى الحقيقة، وعلم هولاكو عن طريق عيونه أن في بغداد شيخ اسمه أبو الخليل الحيروني ينشر بين الناس تعاليم كتاب «كلام الكلام»، فأسرع بالهجوم على دار السلام مثلما سمّاها البعض من أجل القضاء علي الشيخ ودعوته في المهد وإحراق كتابه ذاك قبل أن يستفحل أمره ويصبح خطرا على الدولة المغولية نفسها، وكان ذلك الأمر هو سر الإسراع باحتلال بغداد وتدميرها بكل تلك البشاعة.

ورأى القائد هولاكو أن يأخذ كتاب «كلام الكلام»، ليدرسه مستشاروه، لعله يجد فيه السر الذي يمكنه من التأثير في الناس حتى يملك الدنيا كلها مثلما كان يحلم جده جنكيز خان، وأقدم هولاكو على رأس جيش بلغ تعداده مائتي ألف مقاتل، وأرسل إلى الخليفة المستعصم بالله على الفور رسالة يأمره فيها بالاستسلام الكامل دون أي شرط وتسليم مولانا أبي الخليل الحيروني مكبلا ومعه كتاب «كلام الكلام» الذي أصبح يتشوق لمعرفة السر الذي يحتويه.

وكان الخليفة العباسي بلا حول ولا قوة، ولم يكن يزيد معسكره على عشرة آلاف محارب، بعد أن كان في عهد سلفه المستنصر يقدّر بمائتي ألف مقاتل، ورأى الخليفة أن حربه مع هولاكو خاسرة لا شك في ذلك، ولم يكن باستطاعته القبض على أبي الخليل الحيروني وقد أصبح له أتباع كثّر، مستعدون للموت، فما كان له إلا أن يرسل بعض الهدايا إلى القائد المغولي هولاكو ويطلب منه الدخول في السلم.

وعندما وصلت رسالة المستعصم بالله وهداياه إلى هولاكو، جن جنونه ورأى أن الحرب مضمونة النتائج، وكان يريد من ورائها القبض على مولانا أبي الخليل الحيروني والتنكيل به والحصول منه على

كتاب «كلام الكلام» ومن خلالـه كان هولاكو يحلم بأن يكون حاكما للدنيا كلها، وبدأ بالاستعداد الفعلي لدخول مدينة السلام بغداد.

وأمـر هولاكـو جنـوده بالهجـوم علـى عاصمـة الخلافـة، وكان ذلك في شـهر محرم سـنة 656 للهجرة، وأحاطت الجيوش المغولية ببغداد وكان المعركة غير متكافئة، ولم يصمد جنود بالمسـتعصم بالله أمام تلك الحشـود، وفي يوم العاشـر من محرم سـقطت بغداد في يد هولاكو، لكن هدفه الحقيقي الذي جاء من أجله لم يتحقق بعد.

طلب القائد المنتصر مولانا الحيروني حيا أو ميتا، ومعه الكتاب الذي شـغله وحيّره كثيرا، ولما لم يجد أمامه سـوى المسـتعصم بالله وحاشـيته، راح يفش فيهم غيظه، وعندما قام جنود هولاكو باسـتنطاق الخليفة طالبين منه إرشادهم إلى صاحب الكتاب، لم يكن يعرف شيئا مـن أمره، ولـم يصدّقه هولاكـو وأمر بوضعـه في كيس كبيـر وإحكام إغلاقه، ثم ركله القائد وجنوده بالأرجل إلى أن غادرت الروح الجسد، ثـم جمع القائـد المنتصر أمـراء المدينـة وأعيانها وقتلهـم جميعا دون رحمـة، وتواصلت المجازر في بغداد مدة أربعين ليلة كاملة، وسـالت دماء بغـزارة وكاد هولاكو يمـوت غيضا وهو يرى أملـه في الحصول على الكتاب وصاحبه يتضاءل يوما بعد يوم.

ولـم يكتف القائد هولاكو بزهق أرواح النـاس، فقد أمر بالبحث عـن كتـاب «كلام الـكلام» فـي كل مـكان، وأمـر جنـوده باقتحام كل البيوت من أجـل الحصول على أيـة ورقة مكتوبة، وذهبـوا إلى مكتبة بغداد الشهيرة وخرّبوها عن آخرها، وأخذوا كل الكتب الموجودة فيها ورمـوا بها في نهـر دجلة بعـد تقليبها صفحة بصفحة حتـى تحول ماء النهر إلى اللون الأسود.

أمـا مولانـا أبـا الخليـل الحيرونـي، فلـم يعثر لـه أحد علـى أثر بعـد ذلك، وكانـت من رحمة اللـه عليه أنه رفعـه إليه ونجّـاه من كيد الكائديـن، وأما كتـاب «كلام الكلام» الـذي لم يعثر له علـى أثر، فقد اختفـت النسـخة المكتوبـة منه مـع صاحبها، لكنـه بقـي محفوظا في الصدور الطاهرة.

ووضع الله غشاوة في عيون جنود هولاكو ولم يتمكنوا من إبادة أتباع مولانـا الحيروني، وصـان الأتبـاع المتبقون الكتاب فـي قلوبهم ولـم يتمكن جنـود المغول مـن الحصول عليـه وبـاءت كل أحلامهم بالخسران المبين، وبعد تلك الوقائع الدموية الرهيبة، رأى حملة كتاب «كلام الكلام» ألا يكتبوه كاملا، خشـية وقوعه في يد شريرة ويتعرض الناس جرّاء ذلك لمصائب لها أول وليس لها آخر.

وأصبح الكتاب يتناقل شـفاها من جيل إلى جيل وسيبقى كذلك إلـى ما شـاء الله مـن الوقـت، لا يكتب منـه إلا فقـرات مقطوعة عن سياقها العام وفيما يرضي الله وينفع العباد.

لقـد كنـت يا العلمـي مـن المحظوظين فـي كل الأزمـان، لأنك ستتحمل عبء الأمانة، فأحرص عليها يرحمك الله.

في جوف الضباب

نهض الـزواوي مفزوعا من غيبوبـة لا يعلم مدتهـا، وعندما عاد بعـض الصفاء إلى ذهنه، عـرف بأنه في المقبرة، وكان سـاعتها الظلام دامسـا، وأحس الفتـى بخوف قاتل، وهـو يتجول في حالـة رعب بين الأمـوات، وكان يسـأل نفسـه عن سـر اختفاء الشـيخ الـذي كان معه والـذي قصّ عليه حكاية سـي العلمي من بدايتها، ولـم يعرف إن كان بشـرا أم جنيـا، أم أحـد الأمـوات ونهـض من قبـره ليقـص عليه تلك الحكايـة الطويلـة، بل قد يكون سـي العلمي نفسـه، وكان يتكلم طيلة تلك الحكاية عن نفسه بضمير الغائب، وخشي من أن ينهض الأموات دفعة واحدة ليهجموا عليه، واختنق الصوت بداخله، فأراد الجري لكن قوته خانته، وشيئا فشيئا بدأ يعرف الاتجاه إلى خارج المقبرة والطريق إلى بيتـه الذي وجده بعيـدا، وأصبح يفكر في الأمـوات وفي الكلاب التـي يخافها بشـدة، وفـي الياقوت التـي يبدو أنهـا تخلت عنـه، وفي الشيخ العلمي وفي أشـياء مختلفة، واختلطت في ذهنه كل الحسابات وبقي مثل الجسد الذي غادرته الحياة أو تكاد.

دخل البيت فوجد أهله نيامـا، ووجد الطعام باردا في غرفته وقد تركته له أمه عندما تغيّب عن موعد العشاء، وبينما هو ينظر إلى الأكل بدون شـهية مترددا بين تناول القليل منه أو تركـه، اقتحمت أمه غرفته وقد أحست بدخوله المتأخر إلى البيت، وهي تقول بنبرة حزينة:

أين قضيت الليلة؟

ولما لـم تظفر بجواب منه، أضافت تقول: «عـد باكرا إلى البيت في المرات القادمة، وابتعد عن رفقاء السوء وانتبه لنفسك ولدروسك»، قبل أن تعيد الباب وتتركه لوحده بين هواجسه التي لا تنتهي.

بقي الزواوي في غرفته وحيدا يسـتعيد كل مـا مرّ به في المقبرة، وتأكـد بأن الكلمـات الموجودة فـي التميمة مأخوذة مـن كتاب «كلام الكلام» للشـيخ أبي الخليل الحيروني، الكتاب غير المدوّن الذي كان في صدر الشيخ العلمي وخرج مع روحه.

لقد عرف الزواوي الحقيقة كاملة، لكن الجرح مازال ينخر مخه، فكيف السبيل إلى الشفاء من هذا الداء الذي بدا مزمنا؟

وتذكـر أنـه جاء فـي حديث الشـيخ أن الكتـاب تتناقلـه الأجيال شـفاها وقد كان الشـيخ العلمي من الفئة المختارة لحمله، فلا بد وأن بعضهم يحفظه الآن، فأين يجدهم يا ترى؟

تزاحمـت الأسـئلة في رأسـه فـزادت جسـده وذهنه إنهـاكا على إنهاكه السـابق، وتمنى لو يطاوعـه النوم فينام إلى أن يسـتريح، وتمنى لو أن الموت جاءه وخلّصه من تلك الأسـئلة، لكنه لم يسـتطع النوم، فتفكيره الملتهب جعل الأسئلة والوساوس تخنقه.

تذكر الياقوت والشجرة، فقضى بقية الليل بدون نوم، ولما اقترب النهار، شعر الزواوي برغبة في الذهاب إلى شجرته لعله يجد الياقوت هناك في انتظاره، فربما فاجأته مثلما فعلت في السـابق وساعدته على فك طلاسم ألغازه الجديدة.

عندما خرج الـزواوي واتجه إلى الشـجرة، وجد الجـو صقيعيا، فما إن غادر الغرفة حتى صفعه البرد ورأى بعض الماء متجمدا، وكان من الصعب البقاء طويلا عند الشـجرة، ورغم ذلك جلس، وفي لحظة

يأس من وجود الياقوت أخرج الكناش الذي كان معه والقلم وأراد أن يكتب شيئا، لكن أصابعه لم تطاوعه وقد تجمدت من البرد، وعوض أن يكتب، راح يكلّم نفسه ويتمنى لو أن الياقوت تسمعه، تكلم بسرعة والدموع تنزل على الأرض دون أن يحاول مسح وجهه، وأخذ يسأل الياقوت عما سيفعل في هذا الحال ويشتكي لها ويطلب منها مساعدته وكأنها تجلس أمامه، ثم أخذ يحدثها عن رحلة الشيخ العلمي إلى تومبوكتو ثم ركوبه ظهر البراق وسفره إلى نيسابور.

ولما طلع الصبح، اتجه الزواوي إلى الباب الخارجي للبيت العائلي وهو يدرك أن أهله مازالوا نياما، ورغم شعوره برغبة قوية في الخروج من البيت إلا أنه لم يفكر في أية وجهة، فأخذ يمشي وهو يعاتب الياقوت التي غابت عنه طويلا، ورأى شوارع قرية عين المعقال خالية إلا من بعض الأشخاص الذاهبين إلى العمل في المناطق البعيدة.

تساءل بينه وبين نفسه عن شخصية الشيخ العلمي، وتذكّر فجأة قول الشيخ عندما قابله في بيته: «حافظوا على الولد.. إني أرى فيه شيئا»، فماذا كان يقصد يا ترى؟ وهل سيحفظ الكتاب مثله؟ ثم.. لماذا لا يسافر مثله إلى نيسابور، يفتش هناك عن صخرة كبيرة ويبحث عن الشيخ الذي قابله الشيخ العلمي هناك؟، لكن هل يجده أم أن المكان يتغيّر في كل مرة؟ .

توقف الزواوي قليلا عن المشي وسرعان ما راودته فكرة أخرى، وقال إن الشيخ العلمي سافر أولا إلى مدينة تمبكتو وحفظ كل تراث أحمد بابا التمبكتي هناك، فكانت سنوات الدرس في تلك المدينة ضرورية قبل الوصول إلى كتاب «كلام الكلام»، وتصارعت الأسئلة

في رأس الزواوي وهو يمشي ولا يعرف إلى أين سيتجه.

خرج من القرية ومرّ بالقرب من مقبرة سيدي الزواوي، وعندما رآها من بعيد، تذكّر الشيخ الذي حكى له البارحة رحلة الشيخ العلمي الطويلة، فأين ذهب ذلك الشيخ يا ترى؟ ولماذا اختفى بتلك الطريقة.؟

وبدأ الضباب يتشكل في المكان في ذلك الصباح الصقيعي، وعندما التفت الزواوي وراءه لم يجد صورة القرية التي طواها الضباب.

قال في نفسه إنه سوف يذهب إلى تمبكتو، وربما سيحصل له ما حصل للشيخ العلمي، فربما سيجد رجلا معه ثلاث رواحل، عندما يسير قليلا، فيأخذه إلى تلك المدينة البعيدة، ورأى أن يجري قليلا وهو يستعجل اللقاء بالرجل الذي سيأخذه إلى مدينة تمبكتو، فكان يجري تارة ويمشي تارة أخرى، والضباب يعرقل رؤيته.

ورأى الزواوي فجأة شبحا يقف أمام طريقه، كان شيخا يرتدي برنوسا أبيض، وعندما أصبح على بعد خطوة منه تأمله جيدا.. إنه الشيخ العلمي! لكن الشيخ العلمي ميت، فهل نهض من ضريحه وجاء إلى ذلك المكان؟.. أراد تحيته لكن لسانه لم يطاوعه، ورفع الشيخ ذراعه اليمنى وأشار برأسه إلى الزواوي، ووجد الفتى نفسه مدفوعا إلى الدخول في جناح الشيخ، وغاب البرنوس والزواوي والشيخ في عتمة الضباب.

:gÆDzÅöä ǾÅÅŋ

ÿŸÒöä Ž ÆdÅ̏ʌ ɭÅöä
ʔȉŸǪ̌k ğÅŧŸÒöä ȸÒȍ
¢ÊÅφ ɭȑ Ž ÆdÅ̏ʌ ÆŸÖöäʂ
äÆÆĦæ ǡȁő øÅÒʐɉä ȸÒȍ

ɃæʐĠöä ¬ɟÂöä ʐÒʌÅȽ¼ ȸŋ

للتواصل مع المؤلف

khierchouar@gmail.com